الهجرة المعكوسة

عيسى حموتي

obeikandl.com

الكتاب : الهجرة المعكوسة (رواية)
المؤلف : عيسى حموتي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٤٢٤٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 100 - 0

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandl.com

الهجرة المعكوسة

رواية

عيسى حموتي

obeikandl.com

obeikandl.com

تقديم

إن هذا العمل الروائي الذي شرفني صاحبه بالإطلاع عليه مخطوطًا وبالتقديم له، والذي أعتبره إبداعًا أدبيًا قيمًا، لا شك وأنه نال من كاتبه جهدًا كبيرًا من حيث جمع المادة باستحضار الذاكرة ولم شتاتها وإعادة نسجها في عمل فني أطرته قيم الإيمان بالثقافة العالمة، ومسؤولية تدوين مظاهر حياتية لحقبة زمنية يعتبر المرء شاهدًا عليها ومن واجبه حفظها للأجيال اللاحقة، من خلال عمل إبداعي تطلب امتلاك ناصية اللغة والذوق الفني والأسلوب المعبر الذي يرصد الوقائع ويصفها ليستقبلها القارئ في حلة تستدعيه لمواصلة القراءة والتأمل في المعاني والقيم والقضايا.

وما شدني حقيقة إلى هذا العمل ميزات ثلاث ترتبط بالفكرة والبناء والموقف/ القضية :

- الفكرة / الهجرة : كثيرًا ما تم تناولها بوصفها بحثًا عن بديل للوطن، أو لنسميه المنشأ أو مسقط الرأس، رغبة في حياة أفضل على جميع المستويات؛ المادية والمعنوية؛ وغالبًا ما كان الجانب الثاني هو المراد والمبتغى؛ إلا أن هذا العمل جعلها هجرة إلى الوطن من خلال إعادة الوعي إلى الذات نفسها وإعادة تشكيل قيمة الانتماء لديها وما تحمله من مسؤولية

تاريخية تجاه الوطن بمعناه الحقيقي والوجودي، فلا بديل عن الوطن.

- البناء : معمار تتناغم فيه التفريعات التناصية في وحدة عضوية شكلت لبنات ضرورية لبسط وطرح القضايا والمظاهر من خلال حبكة تغري بالقراءة وتدعو المتلقي للاستنباط والاستنتاج، وتشركه في بناء المعاني وتبينها، بأسلوب عربي تميز بكثافة الدلالة باستعمال معجم وتركيب لغويين يفيان بالغرض دونما ابتذال أو تكلف.

- الموقف / القضية : موضوع الهجرة الذي نقله من مفهوم الحنين والشوق، هذا المعنى الذي يجعل وجود الوطن مقترنًا بالزمن الماضي، إلى تمثل آخر يستشرف المستقبل ويقرن وجوده بمدى مشاركته في بناء غد أفضل للوطن ما دامت قيمة الانتماء محددًا رئيسًا للمواطن .

وإذ أقدر أن "عودة الروح" تمثل حجر الزاوية في مشروع الصديق "عيسى حموتي" في مجال الكتابة والإبداع الأدبي، فإني أنتظر أعمالاً أخرى تليه، تغنيه وتثريه بنفس الرصانة والجدية في مواضيع تعيد للذات وعيها.

علال مساعد

(١)

عارٍ من حنو الأم وحنانها، كاسٍ من تسلط أبنائها، ضاربٌ في الأرض أرنو إلى حق عنوة يُسلب. عارٍ وأمي لا تعدم خيرات، صوفها والوبر وافران، وسماؤها مزنة وديمة، كلها غيث ومطر. خصبها غير مضاهى، ومطبخي استحال قضيضًا وحجر. صارت أرضها عطشى والمخططات: مئات سدود، حجرها مرصوف على الرفوف وملايين من الآبار حفرت على سهول الورق. عاد نور شمس الأم إشعاعًا يغزو سرطانه الجسم ولا عضو منه نجا، فغادر الضياء ساحة القمر...

عاري الجسم، وليدا أحبو، وحولي ذباب التام في حلقات. قوته من ثمار الإفراز وقد جادت به فتحات الجسم فتنوعت بين قذى العين، ومخاض الأنف، وسوائل البراز من موقعها انفلتت. وفي انتشاء يمتص دمي، ينقل منه وإليه شتى المكروبات. أما أمعائي فخراطيم قد اهترت، في فمي ألقي كل ما نقعته أسراب الذباب، وكل ما شملته شوكتها بالتعقيم. له طنين جوقة، افتقد انسجامه، يحتاج ضبطًا لن يستقيم عذب الرنات، ومن العقرب استعار زبانا، شاله، يجود علي باللسعات، تلقيح يحميني مستقبلاً، يبعد عني الشرور والآفات؛- هذا ما كان يقال لنا ولا زال- تبرير يرغمنا على التحمل راضين رغم عجز الجسد

النحيل. وإذا حدث أن نقت ضفادع البطن، وطلبت طعامًا لا يمكن -إن كنت محظوظًا- أن تحظى بأشهى من قليل من الشاي وقطعة مما يشبه الخبز. وغالبًا ما يردعك: "ما حاجتك للشاي؟ ألا ترى أن من يشربه من الصغار يجتاح جسمه القمل" فأخالني منطقة متنازع عليها فخميس الذباب يتعسكر على المناطق العارية وجحافل القمل اتخذت لها المناطق الشبه مغطاة منطلقًا نحو النقط الإستراتيجية، كلاهما يسعى في نهم إلى امتصاص الثمالة المتبقية من دمي. قد يبدو أن تلك القطرات التي تسمن وتغني، لا يمكن إلا أن تكون محط نهم، خاصة أنها قليلة تعجز عن تلبية ولو كسر من حاجة شراييني. غير أن قطرة مني وأخرى منك وثالثة ممن هو في حالنا تستحيل القطرات غدرانًا فأنهارًا لتحول إلى جنات ورياض... إلا أني لا أذكر أني شاهدت الذباب والقمل يتحاربان في ما بينها، لو كان ذلك قد حدث لكان الفريقان قد انشغلا عني وربما قضيا على بعضهما ولارتحت من شرهما، ونما الدم في جسدي، فأحيى بكرامة.

... على وهنٍ، حملتني، بمجهود مشترك، راحتي وركبتي زمنًا، أحبو على أربعة حتى استويت أمشي منتصبًا على قدمي، أنمو كالأشواك في الطريق يطأها المارة، يقضمها الحيوان، وتسطحها العجلات، بلا رحمة، وتحت رحمة ناب الصقيع ولفحات الهجير التي لا أملك لاتقاء شرها سوى ما يغطيني من عالق الأوساخ،

نعالي وقدمي اتحدتا في وجه البؤس، عقدتا تحالفًا، يسري بينهما: يلتزم الحذاء بحماية الأصابع، فقط إذا أصاب القدم تعثر، أما ظهره فلا حق له سوى الاحتماء من أوساخ يعن لها الاعتداء. أسندت لقدمي وظيفتان: عليهما الاحتكاك بالأرض مباشرة وبدون عازل، لستر أسفل النعل المثقوب، والاحتراس أثناء المشي حتى لا تطل الأصابع أو يكشف ظهر القدم وعليه ما يشبه السخام من عالق الأوساخ. وحتى لا يكشف الضعف ويذهب الجهد سدى، حرمت من الركض فلم أصر بطلاً، ومُنعت من ركل الكرة فكنت نجمًا أفل.

هكذا مددت يدي للفقر أستعين به على العوز عسى يجيرني من بنات الدهر ويعينني على صروفه. لم يشتد عودي، ولم ينم كفاية بعد، لا زال أطرى من غض الأفنان، وعليه مسئوليات جسام، أدخلته كرهًا غمار الحياة، يشق عبابها، لا يبغي سوى أن يحظى بفرصة حق، وسط غابة الحياة الحبلى بالوحوش الضارية، ضراوة الزمان وحوش الحياة تتربص به، تترصده بكل الزوايا، تنصب له الكمائن، كما يتحرش بالغادة من هجره طعم الجنس.

لما كنت صبيًا قضيت شوطًا من حياتي مرهقًا أحمل سيف "دانكيشوط "عانيت من القمل، والبعوض والبق والذباب، وجدتني اليوم وأنا طفل أواجه شراسة البؤس. وحسنة والدي

علي، وإن كانت يتيمة فلقد كانت فريدة. إذ كان شديد الإلحاح على أن أتعلم(على تعليمي) لأنه خبر أن مجرد التماس بعض فتات موائد الذئاب والقليل من الدفء، والنزر اليسير من العطف يكلف ما يكلف من... ولعل الحكاية التالية أبلغ ما عبر عن حال من افتقدوا أمومتك ومن لم تُشعريهم بها قط :

"وقف وهو في الثانية عشرة من عمره في زاوية من الشارع مظلمة، لا لنقص في الإنارة العمومية، ولا نتيجة إهمال من المصالح العمومية، بل لما كان الحي يحفل بالأنشطة اللا مشروعة، اشترى المعنيون بالنشاط الظلمة من المشرفين على الإنارة. وقف الغلام ينتظر مترقبًا وصول أخيه الأصغر، سرعان ما لاحت طلعته النحيفة وكأنه لا يتجاوز العشر سنوات، سلم في لامبالاة والألم باد على محياه.

- كم معك؟

- القليل !

- هل تريد أن يكون حظنا من العصا حظ الطبل منها يوم عيد الطبول؟

وهو يلقي بيده في جيبه، انطلق مسرعًا... توقف ودق أحد الأبواب، وبعد برهة عاد يحمل بضاعة ملفوفة في ورق الجرائد داخل كيس بلاستيكي أسود.

في طريقهما إلى البيت يظهر الصغير منهكًا، لا تكاد رجلاه تقوى على حمل جسمه النحيل.. يلتفت إليه أخوه من حين لآخر؛ يستحثه، ولما يئس من الالتماس، سأله بنبرة خشنة عن سبب ضعفه وعدم مجاراته في مشيته كالعادة.. خرج الطفل من صمته والألم يستبد بقلبه ويخنق صوته:

- أخي، لقد تعرضت لاعتداء

- أعرفك تمام المعرفة.. تبدأ المشاجرات ولا تعرف كيف تجنب نفسك شرورها !

- أخي، لا يتعلق الأمر بخصام كالعادة !

- أعرف أنك قلدت أشرار السينما؛ سرقت من هذا، صفَّر ذاك، وأحاطت بك العصابة، ضربت وضربت، ثم أخرجت السكين...

وعاد الطفل إلى صمته تاركًا أخاه يسرد عليه كل القصص التي سبق أن سمعها منه؛ الواقعي منها والمؤلف والجامع للحقيقة والخيال.

ما إن انعطفا في زاوية الزقاق حتى لمحا أمهما عند الباب منتظرة على عجلة من أمرها، اشتم الطفلان نتانة سوء العاقبة، حث الأكبر مشيته إلى درجة حمل معها رجليه على الركض، سلم أمه الكيس وغاب في الزقاق حيث ابتلعه الظلام...

أخذت أصوات الأطفال الصاخبة تخبو في الشارع، وخطى المارة تتلاشى إلى أن خيم الصمت... قرع الطفلان الباب وظلا ينتظران وقتًا غير قصير، لا ينبسان، وهما يحترقان في جحيم عالمهما.

فُتح الباب فإذا بامرأة بدينة لا تقوى على حمل جسدها، لا لثقل وزنها فحسب، كل ما قدرت عليه هو تحريك يدها دون أن ترفعها مشيرة لهما بالدخول. مشيا خلفها، وفي كل مرة تفقد توازنها وتهوي يسرعان لتداركها ومساعدتها على استعادة توازنها. دخلا الغرفة ليجدا وكالعادة رجلاً شبه عارٍ ينشر جسمه على السرير.. بصوت غليظ وفي عدم اكتراث سأل:

ـ لمن هذه الفراخ ؟

أجابت بلسان وكأنه حقن بمادة التخذير الطبي:

ـ لا تلق بالا يا حبيبي، لا تزعج نفسك !...

ـ نضبت العين، ابعثيهم عند"الجراب"! (الجيم بثلاث نقط، والراء مضعفة، من القربة، وفي اللهجة الدارجة تعني:السقاء)

قبل أن يرحلا، حمل الجوع الأصغر منهما على التسلل خلسة إلى المطبخ، أو ما يشبه المطبخ، وعوض أن تقع يده على كسرة خبز يسد بها رمقه وقع بصره على مشهد لم يظن يومًا أنه سيحدث، فالروح الطاهرة كما كان دومًا يعتقد، الروح التي طالما عوضته عن حنان الأم وحنو الأب، الروح التي كثيرًا ما

أمدته بالعون؛ تخفي عن الأم الكثير من أسراره والكثير مما تعتبره الأم ذنبًا أو خطيئة، هذه الأخت التي لم تتجاوز ربيعها بل خريفها الرابع عشر، عارية تمامًا يفترسها شيخ هرم يمسح على نهديها الصغيرين بلحيته البيضاء. أخبر أخاه الأكبر...

وجد الطفلان جسميهما يصليان زمهريرًا في ليل بهيم. أشعلا نارًا تنير ليلهما وتدفئ جسميهما، لكنها جرت عليهما شر وحشين خيراهما بين أمرين :أن يقتلا أو....

وفي الصباح الباكر شوهد الطفلان في طريقهما إلى وسط المدينة. وشوهدت جثة شيخ في الجوار، يقال أن متسكعًا طعنه من الخلف وهو غادٍ لأداء صلاة الفجر... وعند الله علم كل شيء. ولقد قيل" إذا ضعيف حاق به جور وانتقم، فالشظايا تصيب كل ما حولها، ولا ينجو من شرها شيطان ".

(٢)

بروحي إصرار طارق (ابن زياد)، الفردوس الأوروبي أمامي، خلف البحر، ووراءي سيوف القمع ونصال البؤس ومجانية الشقاء. لن يحول دون بلوغي الضفة المقابلة غير الموت، وقد أتحداه، من براثينه أسحب قوتي وأستمد عزمي. ولا يشغل بالي غير الفردوس المختفي وراء هذه الغابة اللامتناهية من الزرقة على اختلاف درجات ألوانها، لا أهتم لضير ولا لأذى، ولا أفكر في غرق أتجنبه ولا في فك قرش أتحاشاه، ولا في تلك الغابة الحتمية التي على كل مغامر أن يقطعها، ولا وعورة تلك الجبال الشاهقة. هو هول في انتظاري لأتحداه، أمواج البحر العاتية تتربص بي وسأهزمها. والحيوانات الضارية، اللاحمة أروضها، لن أصير جيفة غربانها. مهما كانت درجة خطورة أهوال المغامرة فهي أخف وطءًا على نفسي مما أعانيه من جراء قهر أبناء أمي، بلادي. قهر تعددت وجوهه بتعدد رؤوسه كالغول أو كالتنين وقد خضعت هي الأخرى للانفجار، الديموغرافي، لا تكاد تنزل بمكان حتى تجد نواجدها في استقبالك، وجوه مهاجرة، نعم تهاجر متنكرة لألوانها الأصلية - ألم يرد في الحكايات القديمة أن الغراب كان أبيض وتغير لونه لما احتوته أنانيته وخان لونه؟ - لا وجه منها تعلوه حمرة من حياء، كلها صفراء

بلون"النفولة" بل الأكثر من كل ذلك، تنبت أشواكًا وأظافر وبراثن وزبان عقارب، وجوه غارقة في مستنقعات الفضائح، وأحيانًا تبدو بلا وجه، نعم إذا رأيتها اللحظة وحدث أن صادفتها بعد دقائق لن تتعرف عليها ـ سامحني الله لن تتعرف عليك ـ في تحركاتها، في جيئتها في ذهابها، تخبط خبط العشواء. ونحن رغم ضعفنا وهزالنا، رغم بخل السماء وجفاف القلوب، نبقى البقر الحلوب، حتى إذا جف ضرعنا نكعنا، لم نطالب يومًا بغير عشبنا، حقنا، الذي يحوزه إخوتنا، يحتكرونه، وجوه لبست رداء من النهم والجشع تحت طربوش أحمر تدلت منه خيوط سوداء عمدًا تمنى أمثالنا لو يحظوا بمجرد التعلق بها، تزرع الأشواك في المسالك، وتعزو الوخزات للسنوات العجاف وإلا للكوارث الطبيعية.

أتطالبين من حاق به ظلمك بل إهمالك بعدم التأفف وبالإحسان وخفض جناح الذل و... و... وأنت في عدم اكتراث تنظرين إليه يذوي ويخونه النفس؟ ألم تنتبهي يا أم/وطن، أن جبالك تبتلع النداء وتغتال الصدى؟ لا أحد يجادل أن رمالك تتخضب بحناء أعراسها وهي ثكلى. لا يختلف اثنان حول كون ليلك أخرس ونهارك أعمى، والعقل كسيح من خلف الصقيع يرى الديمة العذراء، تساق غربًا، ونحو الشمال، قطيعًا تقاد الحقول السمر قصد كسب صك الإرضاء. والعباءات البيض عادت سودًا في الرذائل غرقى.

أمي ألم تلقي بالاً لمَ أنت عليه؟! انتبهي، فإن رصاص شوارعك يصدأ في قنوات البنادق، يعلق كل الآمال على قوارب الموت. أخرجي من شرنقة ليست منكِ ولا لكِ! فأمواهك تأسنت في مستنقع من الهزائم، أخرجي تري براز شارعك ديدان وبوله دم، وشرجه قد غطاه نسيج العناكب. على الأقل اشرئبي فذي سواعدك وقفت سدًا منيعًا في طريق القبلة، تعشق الأنياب، تنادم الجلاد. من أبنائك تصنع قنابل موقوتة، تتحكم فيها عن بعد. أبمثل هذه يستغيث بيتك على بنات النكبات؟ كلا وثم كلا. أمي لقد سكنت حيرةٌ رأسي، أمشي على سراب من أمل مدغم في اليأس، حالمًا، أخال خلخال أمي بلا رنين، وحصانها ذا الوبر أمرد له موعد مع البطولات لا مع الحنين. أخال الغرة تستعيد موقعها من الجبين. أخال أقراطك تدلت معلنة فزع وعلَّ استفزه الكمين.

أمي إلى متى يظل الحق حلمًا والخبز ترفًا والملاذ ماضينا الحزين؟ إلى متى يبقى مستنقعًا ما كان عصورًا أحصن عرين؟. إن تطهير بيتك وقف على جيل "البعازز"... لقد سمعت حكاية من فم أحد الدراويش:

ـ أطلب حالاً !! أطلب ساحر النظام !! بدل أن تضيع الوقت في الركوع، نفذ !!!...

- أين أنت؟ لماذا لا تحضر قبل الوقت الذي أنوي فيه المناداة عليك؟ لماذا كل هذا التقصير في الواجب؟ وصلتني أصداء تقول إنك تبدي بعض الليونة تجاه بعض من أنت مسؤول على العمل فيهم والاشتغال عليهم !!. أجب بسرعة ! وبدون تفكير.

- أملي ومناي إرضاء مولاي، ولا شيء في الكون يشغلني عن خدمة ولي نعمتي...

- ألم أقل : بدون تفكير !!!

- عفوًا يا مولاي أنا لا أفكر، أنت من يفكر، فمنذ عهد بعيد وأنت تفكر، ولك تجربة غنية في التفكير، أنا خلقت لأنفذ، وتجربتي في التنفيذ لا تزال ضعيفة.

- هذا واضح أيها الأحمق، منذ متى أتقن أمثالك عملهم؟ هات ما عندك !

- إنني منشغلٌ في استحضار القوى من مختلف الظواهر: من النار، من الرياح، من الرعد والبرق... أتمرن على التحكم فيها بدقة وإتقان، أشحنني بما أستمده من طاقات من البراكين، من الأنواء، من الفيضانات والأعاصير...

- وماذا عما هو موكولٌ إليك؟

وقف الساحر معتدلاً، رغم ارتجاف ركبتيه أحسنَّ بنوع من الزهو يدفئ صدره، وأخذ يستعرض إنجازاته وهو متأكد أنها ستحظى برضا شهريار... لقد سلَّط على من مسخهم، وصاروا جرذانًا،

من قوى الشر ما جردهم من كل أنواع قدراتهم حتى أضحوا لا يستطيعون المشي إلا وهم يتلمسون الجدران، أما جحورهم فقوض لها من القوى ما يتحكم في تضييقها أو توسيعها على عكس ما تطلبه الحياة ويتحكم في حركاتهم وفي سكناتهم، على شاشة. هذه القوى تُقرأ أحلامهم وآمالهم حتى قبل أن يفكروا فيها... أما العمالقة فقزَّم أعدادًا هائلة منهم، بعد أن كانوا يصولون ويجولون أصبحوا أقزامًا لا حركة لهم ولا صوت، أضعف من الضعف نفسه...

أما الضفادع فلم تُختر لها هذه الهيئة عبثًا، لقد أفرغت جماجمها من كل مادة حيوية وحُشيت بالنخال حتى أصبحت تزقزق عوض أن تنق، وللتأكد من مدى نجاح التجربة، وُضعت في مستنقع تضبط درجات الحرارة أو البرودة حسب ما تقتضيه المصالح العليا، وهكذا لا يمكن إطلاقًا أن يصدر منها ما يثير القلق... وأما القردة، ففي ردة الطرف تحولت عصاه إلى سياج، حولها وفي سمائها، وحتى تحت الأرض، وبتقنيات لم يسبق لها مثيل في كل العوالم. حسبك أن تعلم أن السياج مجهز بآلات لا تُرى، ينطلق إنذارها عند الاقتراب منه بمسافة متحكم فيها حسب الأوضاع والأوقات.

وما أن انتهى من هذا العرض حتى فاجأه شهريار.

- اسمع أيها المغفل، احترس، كُنْ منتبهًا أكثر، لا أريد أن تغفو لحظة واحدة، كما لا أريد هفوة في العمل. ومن جهة أخرى؛ لا أسمح بأي تبرير كيفما كانت قوته أو ضعفه. والآن إليك مهمتك الجديدة، أنجز ما تؤمر به بحذافره، وإلا استفرغت كل قواك.

سلمه الحاجب مظروفًا، استلمه، ركع ومضى يتنفس الصعداء، اجتاز البهو والعرق يعيق حركته... ألقى الظرف واستلقى على ظهره وعيناه مثبتتان إلى السقف... لم ينتبه إلى الوقت حتى سمع الحاجب يُعلمه برغبة شهريار في إطلاعه على الشوط الذي قطعه في المهمة الجديدة. وعاد الحاجب من حيث أتى.

لقد حول العرق إلى حلي، يقول إنه لا يوجد لها نظير لا في كمها ولا في نوعها. ساقها إلى حيث تكنز عبر أقطار الأرض واحتفظ ببعض النماذج لخزائن القصور، وأخرى كهدايا لمن يركع أمامهم مولاي، ومن هو لهم مدين. والدماء المجباة حالت "دولارات" خضراء، و"أوروهات" عنها ضاقت كبريات أبناك الكون ووكالاتها، في كل زاوية من العالم.
والغريب أن دموع البؤس نبتت في كل محيط، ، في كل بحر، جزرًا كالفطر أما ثدي الأم فمدت منه مباشرة إلى القصور أنابيب تصب في صهاريج: صهاريج النار والاستحمام.
هذا ما أنجزه إلى حدود اللحظة التي زاره فيها الحاجب.

استدعى شهريار ساحره.

- لا حاجة أن... لا... لا... عد إلى عملك !

- إذا أذنت عظمتكم، لقد لقيت مضايقات في عملي من لدن شهرزاد...

- لا تهتم ولا تلق بالاً، فشهرزاد لم يعد لحكاياها جدوى، يكفي ما هدر من وقت ثمين، لقد شغلتني لأمد طويل عن شؤوني، وحان أن تخون كبنات جنسها.

تمتم بينه وبين نفسه :

- الشكر للقوى العظمى، آن لهذه الصخرة أن تزاح من طريقي.

كانت شهرزاد عائدة من حصة تحريض في غياب الساحر، استطاعت إقناع الأقزام والمسوخ بالتمرد ضد شهريار وسحر النظام، وضرورة تنفيذ الخطة بإتقان، عندما التقت في الرواق بالساحر، قبل أن يدنو منها صدر من أعماقها فحيح كشواظ نار من فم تنين، أصاب الساحر على مستوى الصدر، دفعه إلى الخلف ليسقط على حافة الصهريج حيث لا زال شهريار يسبح ينعم بما تجود به الأم حتى، على العقوق من أبنائها، يبدو أن الساحر استنفذ قواه في المهمة الأخيرة دون أن يلقي بالاً.

وفي لمح البصر عجَّ المكان بالأقزام والمسوخ، والساحر ملقى على الأرض شيئًا فشيئًا تخور قواه، والأقزام والمسوخ شيئًا فشيئًا تستعيد هيئاتها وأشكالها، إلى أن استوت على صورتها "مهيار" ينعم بكبرياء.

مدَّ شهريار يده نحو المنشفة فحيل بينه وبينها، وقف فاغرًا فاه وساحره يتنازل ويتنازل أكثر فأكثر على أمل أن يُسمح له بالبقاء على قيد الحياة.

حاول شهريار أن يدخل عبثًا في حوار مع الجمع الواقف صفًا متماسكًا، بيد كل فرد ولاعة بلهيب أزرق، ما كان له أكثر من أن يتحدث إلى نفسه :

- لِمَ لم أفكر يومًا في مثل ذي الحال مصيرًا لي؟ أأغادر عاريًا، أم أموت حرقًا في ذا الصهريج ؟ أم سيكون مصيري أفضل من حال هؤلاء في الماضي؟.

وفجأة، ومن حيث لا يدري أحد - بالطبع أحد من جماعة شهريار- بسرعة البرق نزلت رافعة تلقفته في لمح البصر ليتوارى عن الأنظار ".

(٣)

أبـواق مـأجورة تـروج لفحولــة تاريخـك المخـصي، وأقلامـك الغيورة قد شاخت، وجف، بل سحب منها حبرها، والأنكى من كل ذلك هو تلك الأنامل المرتجفة التي أصبحت تحركها، تخطئ الدواة وتخطئ المحبرة. وهي تحاول الغمس، هرقتها فاستحال البيـاض قـارًا. فـصلب الحـق بـين الحلـق والغـار، فـلا الهـواء ينساب، ولا هو يحتك عبر الجهاز بل بقي منحبسًا، يكبله حبلاه، والدجى تجثم على العيون، وزمهرير الجليد في ازدياد. مركبك يـا أمـي ريـشة فـي مهـب الـريح بـلا قلـوع، والبوصـلة ضـائعة، مجدافك شرقي ضعيف، والعاصفة سيف يغازل الرقاب، يرغمها على الركوع. وسط الأنـواء يـا أمُّ تستنجدين بنسلٍ لك قد أطفأ المنار، بعدما ألقى خلف ظهره هدي القدير، وبـاع الـضمير شـأن من كان ولعه القمار. وويلٌ لكل من يغمس قلمه في محبر الجهر أو في مدواة التمرد ضد سيف القهر. ولا يسلم من الكسر غير قلم في انتشاءة السكران، ترنح بين مد وجزر، خفض الأعزاء والأوباش رفع، خائن، لمن يخاف بطشهم قد ركع. وهذا حال الرأي كما تجهلين أو كما تتجاهلين أو على ما تريدين أن يكون. فلا يستبعد أن تكوني من أمرت القلم بكتابة "العام زين" ولا شيء عدا ذلك، حتى خبا صوته... وهذه الأسطر أسفله أصدق

تعبير على ما آل إليه القلم، لما انحصرت وظيفته في كتابة التقارير أخذ هو الآخر يتزاحم على ركوب قوارب الموت:

" أودع عُدة العمل، غادر ورجلاه لا تقويان على حمل جسده، وشقاء يوم كامل من العمل المضني مقرونٌ بهمومٍ لا تُحصى يثقل كاهله، ينتابه إحساسٌ بأن رغم المنهجية، ورغم النظام والترتيب، الوقت من حوله كل يوم يضيق عن العمل أكثر من ذي قبل... استلقى عل المقعد الخلفي داخل سيارة الأجرة، وهو يتأوه تارة ويتثاءب أخرى وثالثة يدغمهما. انتبه السائق لحاله فسأله، ودون اكتراث ألقى إليه بشبه جواب لا يفصح فيه عن شيء، وهو متجه نحو الشرود.

"التقرير اليومي !! كل يوم تقرير !!! كل يوم !!! كل يوم !!! لماذا على سزيف أن تتلخص حياته في تقرير؟ "

"يرصد حركاته وسكناته، بل عدد حركات الأنامل التي داعبته ، عدد الأوراق التي افتض نصاعة بياضها، حجم الحبر الذي سكبه عليها، درجة تخصيبه لها وحتى حجم المسكوب منه في التسويد، رغم عقمه، أما عن المواضيع التي خاض فيها ومن أي الزوايا تناولها فحدث ولا حرج... "

دخل البيت منهكًا، على غير العادة لم يحظ باستقبال زوجته"فرشاة "التي كانت هي الأخرى منهمكة في معملها تكتب تقريرها اليومي بعد أن انتهت من تلطيخ القماش. لولا

الصخب الذي أحدثه "قلم" في المطبخ، وهو يحاول خدمة نفسه بنفسه، يهيئ كأس شاي، يعدل مزاجه، ويساعده على الاسترخاء بعد أن خرج من الحمام، لما انتبهت لوصول زوجها. تجردت من وزرتها وبسرعة مررت يديها مرات في شبه منشفة لتلتحق بـ" قلم"الذي كان قد ألقى جسمه على طول الأريكة. بعد السلام سألته عن يومه كيف وفيما قضاه.

امتعض في صمت:

- يا رب ! كُلٌّ يطلب تقريره، لازلت أتأهب لكتابة التقرير الإداري، وها هو...

- ماذا تقول ؟ لم أسمع شيئًا !

- كان يومي شاقًا أكثر من ماضي الأيام، فلا التجربة ولا طول الممارسة أفادا في التخفيف من هذا العناء ؛ لقد عرجت إلى الفضاء، حيث كان موعدي مع طائر مهاجر يحمل حقائبه متجهًا غربًا، وما أن أنهينا حوارنا حتى وجدتني مرتبطًا بموعد ثان، وكان على الأرض كلفني عناء الهبوط، وقبل الانتهاء بلحظات رنَّ الهاتف، تذكرني السكرتيرة بموعد في مستنقع مع أحد الضفادع... ولا زالت رحلة شقاء يومي لم تنتهِ بعد، إذ لازلتُ لم أحرر التقرير.

- ألا زلت لم تحرر تقريرك ؟ لم لا تقتدي بي ؟ فأنا لا أغادر المعمل قبل أن أتخلص من عبئه.

في هذه الأثناء حمل نفسه على الكتابة:

ـ كنت محظوظًا في صبيحة هذا اليوم، داعبتني أنامل أرقٌّ من الرقة، طرية طراوة البوضة، شرفت بافتضاضها بكارة صبحي، فانطلقت منسابًا، مستجيبًا لنداء الواجب ؛حلقت في الفضاء رفقة طائر، أجريت معه الحوار التالي:

ـ أراك متجهًا غربًا، لم هذه الوجهة؟ ولم لا تولي وجهك ناحية الشرق أو الجنوب؟

ـ حبذت لو كان سؤالك : لم الهجرة؟ لأن الهجرة في معظم الأحيان تكون نتيجة لضغط ما، ونادرًا ما تكون للتسلية أو السياحة، والضغوطات تختلف من كائن إلى آخر. والوجهة تحددها الدوافع، والكائن منا حينما يعقد العزم، يتجه إلى حيث قد يجد ذاته ويحقق نفسه، فأنا أختلف إلى حيث لا جليد ولا صقيع، فهذه الأجواء تجمد صوتي وتخنق نبراته، أما وجهتي فتمتاز باختلاف حدائق الأنغام وتنوعها، وتمتد بلا حدود، لا تسائلك عن مقامات شدوك، ولا ترغمك على تكييف تغريدك على سلالم موسيقية معدة سلفا، لأن النبرات لا تتحكم فيها قواعد خارجية، وإذا حدث مجتها الأذن، واستهجنتها الأذواق.

ـ وهل ستعود يومًا ؟ ومتى ؟

ـ أجل لا بد من العودة، طال الزمان أم قصر، إما أن أجد حشودًا في استقبالي، ولن أتمكن من رؤيتهم، وإما متقاعدًا، وقد تركت شدوي.

ولم أكن في اللقاء الثاني، بنفس المزاج الصباحي، لقد وجدتني بين أنامل خشنة، أجري حديثًا مع أحد الببغاوات، كان كلامه كله نحيبا نتيجة فقده لذاته لا هو طائر ـ كما يرى ـ ولا هو إنسان، لا يشدو شدو الطيور ولا حديث الإنسان، فكل ما يمكنه فعله هو ترديد ـ في غباء ـ ما يلتقطه من كلمات، فغدا لا يطيق وظيفة التسلية التي التصقت به، يرى نفسه كصبي أو كمعتوه.

نزلت إلى المستنقع، وجدت الضفدع في انتظاري فسألته عن صوته المكرور ولم لا يصدره إلا ليلاً، وقلَّ وندر أن يُسمع نهارًا، كما حاولت أن أعرف منه سر بقائه في المستنقع وهل فكر يومًا في تغيير المقام ليحيا في مكان أنظف، فوجدته يرى في المستنقع النظافة عينها وفي روتين صوته منتهى البلاغة وأعذب الألحان، لا حاجة أن يصيت في وضح النهار ما دامت كوابيس ليله ترغمه على النقيق.

بعد كل ما سمعته اليوم سمحت لنفسي بالتفكير في إجراء حوار مع ذاتي:

ـ أيها القلم، ألم تفكر في الهروب من الصقيع ؟ ألا ترى معي أن الجليد يجمد الحبر في أوصالك، ويصيبه الحران ؟ ألا ترى من جهة أخرى أن الهجرة تجدد الطاقات، تحقن الشريان بمداد فيه جدة، وألوان أقواس السماء؟

- لا أذكر أن الفكرة راودتني في الماضي، لم أول الأمر اهتمامًا لأني مجبر على البقاء، علي أن أقاوم، أواجه، أعبئ، إذ لا يمكن للساحة أن تحيا بلا قلم ؛ فمهما كبوت أو سقطت، ومهما ديس علي أو تعرضت للمصادرة؛ سأظل هنا أعلن حضوري.

مباشرة بعد الانتهاء من الصياغة، رُفع التقرير، وفي صبيحة اليوم الموالي، توصل باستفسار:

"إذا كنت قد استهلكت عُشُر حبرك - كما أثبتت حساباتنا - في تسجيل الحوارات التي أجريتها اليوم، ونحن نرى على صورتك التي أرفقت بها التقرير أنك استنفذت نصف محتواك، ففيما استهلكت الخُمُسين؟"

- سأظل هنا أحارب كل بلادة تهين الذكاء ".

في مثل هذه المستنقعات يغرق نجم تاريخك، بفضل من أنجبت وغاب عنك أنهم ممن رفع عنهم القلم، يموهون بحمل المعاول، وقد باعوا الأرض والمالك الجديد قد ربع، بفضل من للغير صر نوقك إلى أن نكع، ومن يحرث الأرض وترابها من تحت أقدامك قد سحب. سقف بيت على هذه الأركان رفع، قبل أن يبسط كان قد وقع. هم ألباب محنطة في الجليد، في الصقيع، لاحت كالنسور، تحت أجنحتها طوت كل بطريق أوقعته في شركها، حلقت به عاليًا تحقنه رذيلة حتى الشبع، لتجرده من لباسه

وعاريًا تضرب به الأرض: من على طاولات القمار، في أحضان اللهو، من على أجساد غيد بين يديها ألقى كثبان الرمال ومراكب النخيل، وسواد عين الحقول، عطايا وهدايا منتحبة تدمع. والنتيجة هزائم ونكبات ونكسات، ومثلبة، ما شوهد لك نصرٌ يومًا ولا منقبة. كل ما لك هو قوس تمويه وفزاعة.

obeikandl.com

(٤)

أمي/وطني أعلم أن نسلك "إخوة العفيف"، لا زال له امتداد من الماضي إلى الحاضر ونحو الغد، لن يهنأ باله ولن يهدأ حتى يحيل النور صقيعًا. أمي أليس هو من طلقك من الشرف ومرغمة زوجك للفساد؟ أعلم أيضًا أن القلق يملأ صدرك، والحسرة تخنقك، وفي الوقت ذاته أنتِ أم بقلب رؤوم وبروح رحيمة غفور. بلا نور النهار وبلا مصباح يقودك، لا بل يتيه بك، يلهث خلف حتفه. يجوب أسواق المدائن، بدءًا بسوق الحيتان، فالأسواق السوداء التي تقام تحت جنح الظلام، حيث باع سروالك وأهدى؛ بل أسلم؛ عجيزتك طوعًا بالمجان، مزهو فرح نشوان قد حظي بشرف التعلق بأهداب الأعيان. طموحه جامح قاده إلى سوق الدين والملل، نصَّب نفسه أميرًا للجماعة، يغزو نهارًا ويحج ليلاً، يصلي أيام الجمع ويصوم العيدين ! وبالسيف يرسم آيات العناق والنفاق على الوجه وسطح الجبين. دون أن يأبه لدموع قلبك تسأله حق تاريخها وما درت أنه قد لوثه من قبل ومن دبر، فسقى الرحم ماء المجاري. فإذا بالنسب والدات كثر ويعد الآباء بالمئات.

طوح به الطموح الأرعن إلى بحور السياسة، حيث شرع مجهدًا يصقل نعشه، معتمدًا على ولائه لضمان بقائه، جاعلاً من إخوته بقرًا حلوبًا محرومًا من عشب أمه، دمهم له جباية، ودرهم له ضريبة يومية، من محيطهم يسحب الأكسجين، ليبيعه في أسواق الظلام، فيلق ثناءً وتشجيعًا من قاطعي الأنفاس.

يدين بتجارة العدالة في بورصة الضمائر، ويعزو للجفاف إحراق الفسائل. وهو على علم أيتها الأم أنه مجرد عبد يخر لمالك رقه، فتلامس شفتاه الأحذية قبل أن تترقى إلى مستوى الأيادي. من علينا وعليك والجو قر يسحب الغطاء ليدثر به مطية الأسياد، وفي اندفاع مهرولاً يهب لإخراجها من العطل باليد وبالأسنان، بالدفع بالسحب، بسلام توصل المطية في منتهى الأمان: قرجة للسياف وقد ادعى عمدًا تعطلها بالوادي. يالله العزة! يالله الشرف! متى ولد من صلب جلاده في بيته له صبي، احتفل مزهوًا بالميلاد يرقص في زي العار بجسد العاهرات والقيان. هذه مطاياه يركبها بغية بلوغ الذرى، يخصي والده ويخض عرض والدته فوق موائد القمار، وما يومًا عقل أو درى أنه جيفة عطرت حتى ترضى عنها الغربان.

لا يغرنك ما ترددده أبواق الإعلام من حراك عربي أو ثورات الشباب أو الربيع العربي، وورود الربيع العربي، فمن يسرق الثقة، ويسرق المال العام، ويسرق العرق، ويجبي الدماء

بإمكانه أن يسرق الثورة ويسرق الحراك ويسرق الربيع، ولا تسلم من أذاه الورود، فمثل هؤلاء قادرون على أن يستمدوا قوتهم حتى من مخالب موتهم، يحترفون اللصوصية، والمحترف لا يمكنه الاستغناء عن مجال تخصصه، والمثل الشعبي المغربي يقول: "لعريف عمرو ينسى تحريك لكتاف".

obeikandl.com

(٥)

ما أشد خبث وجوه: "إخوة العفيف"، يا أمي، تُدخل هذه الوجوه من الصناديق دون أن يتكفل أحد بإخراجها تدعي أنها دخلت بطريقة مشروعة، وأنَّا من أدخلناها، ونحن من هذه العملية براء، لأن من فعل ذلك في الحقيقة هو البؤس المدغم في التجهيل المنقوع بدريهمات وآلاف الوعود بخلق فرص العمل للبنات قبل الأبناء. وما أن احتلتها حتى أحكمت إغلاقها خلفها، فلا أحد يراهم ولا هم يسمعون أحدًا، أقسموا أن لن يغادروها مهما كلفهم ذلك من ثمن، ولن يُخرجوا، انغرسوا حتى امتدت جذورهم في أعماق البلاد. وكل محاولة لإخراجهم تبوء بالفشل للعواقب الوخيمة التي تنتج عن ذلك، والوطن في غنى عنها.

نحن أبناؤك يا وطني، أسندت واجب رعايتنا لوجوه لا وجوه ما تعهدتنا برعاية، بل على العكس، أتقنت زرع الجوع في البطون والرعب في النفوس، ما أحاطتنا بحنوك، بل على العكس سلطت سيوف الفقر والقهر على الرقاب، ترغمها على الابتسامة المصطنعة والحال ذي كل من يدعي حبك يا وطني ينافقك: الرفيع من القوم كابن آوى يحتال على الأسد مستغلاً انشغالاته ليحوز لنفسه قلب الفريسة، أما وضيع القوم فبسهولة تامة تنطلي عليه خدعات الرفيع فيملأ الأجواء تصفيقًا وزغاريد

على أمل تحقق ما وعد به ويعود ليلتحف السماء ويفترش الثرى، يتلمظ جوعه. هؤلاء إخوة للعفيف يتآمرون على الأم، يكيدون للأخ لا يكنون له غير العداء. قد جاؤوا، كيف ومن أين جاؤوا؟ من الظلمة جاؤوا يخاتلون ويضائلون أجسامهم، معذرة، أولاء أجبن من أن ياتوا، بل جيء بهم، فهم أجبن من الأرانب، وأشرف منهم الثعالب، جيء بهم أغرارًا، حفاة، جيء بهم أغمارًا، عراة، سرعان ما استأسدوا، فجبوا دماء القوم، سرعان ما استصقروا، فمحوا السماء من كل مزنة، غزوا رحاب المروج واستبدوا بضياء الشمس، بسطوا أجنحة من عقم الظلام وعملوا جاهدين على محو أبجدية المجد. في خياشيم الأم دقوا مسامير، تزداد صدئً مع توالي الأيام والشهور والأعوام وجسمها عرضة للكزاز، فيضيع النقاء عن جسم طالما تغنى بأسمى معاني الطهارة والنقاء.

أغمدوا النصال في قفا المغلوبين؛ بسطوا الغلاء في مسالك الفقراء، وبلا ذنب وزعوا العقاب، من كلابهم المتخمة تجدين أبناءك جياعًا، يشحتون ـ في بصبصة الجراء ـ شمة من ريح خبز جاف.

أبناؤك، هؤلاء سرقوا بسمة من على الشفاه المشققة، هم من حظروا تجوال البشاشة وقمعوا مظاهر الحبور؛ أحرقوا الزرع، حرموا الغرس، ولم تسلم الجذور من الاقتلاع.

هؤلاء هم من صادروا الأصوات، فخرت لسلطانهم نسمات الزهور، هؤلاء هم من أرغموا الشارع على تزييف النشيد:

ذلك شبل
إن دنا خر
والثغر فَرْ
أبوه يملأ الغاب برْ
له مصانع بؤس
يمنح الشهيق
يصلب من يزفر

ذاك جرو، دعه
دعه ودعه
لا تزعجه
أبوه كلبٌ ضال
إن غضب
رفع الساق
وعلى كل بال.

obeikandl.com

ذاك جرو
ابن ذئاب
دان له جبل
وسفح وهضاب.
بالمخالب
والأنياب
يجبي الدم
يمتص الآبار
يسبي الظباء والآرام
كريم يجود بالعقاب

ليس ذا غير جحش
أبوه فظ جش
ضيقُ أفق
جبنُ أرنب
شقاءُ سزيف
أبعد النسبْ
خؤولةَ الحصان.
يسعد بالتبن قوتًا
يوثر بالشعير الخال

obeikandl.com

لن يكون
يومًا له
سندًا وارف الظلال
يقيه قيظ الشرور؛
شتم وضرب وعقال
بلا ملف ولا ادعاء
بحق له، تصدر ضده الأحكام.

غطائي مطرقة
رحمتي مطرقة
السندان سريري
فراشي قضيض
شرابي غسلين
شروقي بلا وميض
بين صفا الأصيل
ومروة السحر
عقارب شمسي تسير.

وفي فؤادي للوطن حبٌّ
وإن يكن ظلم ذوي القربى عسير"

obeikandl.com

(٦)

ما الذي يُنتظر ممن يبيع دمه لضرورة حياتية وبعد أن أغلقت جميع الأبواب في وجهه ظلمًا ؟

ما الذي يُنتظر ممن باع أحد أعضائه الحيوية بثمن قليل يطمع في جمع مصاريف الاستشفاء لفلذة كبد تذوي أمام عينيه وقد ألمَّ بها مرضٌ عضال، في الوقت الذي استفاد السماسرة بأضعاف ما قبض ؟

ماذا يُنتظر ممن يشهد زورًا ضد نفسه ليسجن بدل المذنب ذي البذلة السوداء مقابل بعض المال لا يسمن ولا يغني عن فقر ؟

ما الذي يُنتظر ممن سُرقت عيناه من قلب أحد مستشفياتك العمومية ؟

ما الذي يُنتظر ممن لم يتبق معها ما يباع غير ما حبتها به طبيعة الأنثى ؟

لقد اسودت الحياة بل هي كما يعيشها الدهماء هول، ورعب، وسلب، ونهب واغتصاب، وإرهاب. أضحت بالنسبة لهم مصاص دماء.

ماذا عن أخي الأكبر الذي قضى شبابه يتأبط شره، في أسواق المدينة نهارًا، ليتطور شره فيصبح من خفافيش الليل، قضى

عقوبات سجنية متتالية، لا يغادر السجن إلا بنية العودة إليه؛ لا بل بلهفة العودة، يغادر لينفق ما تدره عليه تجارته داخل السجن. قبل الخروج تكون سيارته معدة تنتظره، وما أن ينفق المال وهو لا يألو جهدًا في إهانته، يعيش مغامرات أشبه بأفلام "جيمس بوند" يرعب المدينة، ترتج للحدث أرجاؤها، يصبح محور اهتمام سلطات أمن المدينة.

خرج يومًا من السجن، بلحية كالمخلاة، يدعي توبة نصوحا، يقضي نهاره بين البيت والمسجد يواظب على الصلاة، ويخرج لأداء صلاة العشاء ولا يعود إلا وقد أدى صلاة الفجر.

خرج يومًا ولا زالت والدتي تذرف الدمع حتى اعتادت عينها اليمنى على الإدماع فلم تعد قادرة على التخلص منه. تحدثت روايات كثيرة ومختلفة عن وجهته، فمنها من ادعت أنه شوهد في مدينة "سلا" ومنها من قالت في "الدار البيضاء" ومنها من قالت إن أحد العائدين من العراق من أبناء المدينة قد رآه في الموصل بالعراق وغيرها قالت بإقامته بأفغانستان.
فلا "مختفون" ولا غيره من البرامج التي تهتم بالبحث على المفقودين أو الفارين أو الرحالة أو المجاهدين، عرفت له أثرًا. حتى أصبحت أمه تسمع بتواجده وتراه، في كل عملية انتحارية، في كل تفجير، في الحديث عن التنظيمات الإرهابية، في الحديث عن القاعدة عبر شاشات التلفزيون...

... ماذا عن بائع متجول لا ذنب ارتكب سوى الكد في سبيل نحت رزق يومه، يُطارد مطاردة اللصوص، وهو يرى كيف يكرم باعة خيرات البلاد في السوق السوداء، يحظون بالنياشين وتقام لهم التماثيل تلوث ساحات سالت بها دماء زكية فداء لك أيتها الأم ؟

... وماذا عن حمال تحجز عربته، ويزج به في السجن، يعجز عن أداء الغرامة، وتباع والحصان الذي يجرها في المزاد العلني، ولا أحد بما فيهم الأم/ الوطن يكلف نفسه التفاتة بسيطة إلى أبسط حقوق الإنسان. فما ذنب الأبناء ؟ كيف يسدون جوعهم ؟ ماذا عن حالتهم النفسية ؟ حتى مع افتراض أن الأب مذنب فلم يعاقب الأبناء ؟ :

"بعد شحن البضاعة، وإحكام ربطها، تلافيًا لتداعيها أو سقوطها، نتيجة لحركة العربة، تربع الحمال على المصطبة وهو يردد: باسم الله.. باسم الله.. توكلنا على الله، قبل أن يصيح بالحصان: أي ي ي. وما كادت عجلات العربة تتم دورة حتى تلقى إشارة تدعوه لالتزام اليمين والتوقف...
قبل أوراق العربة، طُلبت منه الفاتورة التي بمقتضاها تم شراء البضاعة المشحونة..

- ماذا تريدون؟

- اسمع ! نحن لجنة من إدارة مكافحة التهريب !

- وما علاقتي أنا بالتهريب حتى يتم إيقافي وبهذه الطريقة ؟

- أنت تنقل بضاعة، ونحن نريد أن نرى ما إذا كانت مهربة، وهذا كل ما في الأمر.

- أنا حمال، مجرد حمال... كيف لي أن أهرب جهاز تبريد وقد اشتراه صاحبه، ودفع ثمنه نقدًا، من دكان معلوم، صاحبه من أهل الخير والصلاح في هذه المدينة، وعنوان المشتري إلى حيث سأحمل الجهاز معي. ألا يكفيكم كل هذا؟ إي ي ي.

أمسك أحدهم زمام الحصان ليحول دون انطلاقه، وقد بدا عليه القلق.

- توقف، إذا حاولت الإقلاع مرة ثانية ودون إذن سوف تندم !

- ماذا تريدون مني؟ ليس معي أية ورقة.. لكن لم لا نراجع البائع ؟ هو من يعطيكم ما تطلبون...

- لا تكثر من الكلام، فأنت تنقل بضاعة مهربة، ولذا سترافقنا إلى مكتب الإدارة حيث سيُحرر لك محضر في الموضوع.

أحس أن الوطأة تشتد، وأن الأمر ينطوي على الجدية، فحاول أن يخفف من حدة مقاومته..

- وكيف لي أن أعلم أن البضاعة مهربة، وحتى مع افتراض العكس فكل السوق يعيش على هذه الحال، وكيف يمكنني أن أحصل على قوت يومي إن كنت اشترط أن تكون البضاعة محلية وكل ما في السوق يمكن أن يكون مهربًا، وكيف يمكنني

أن أمتنع عن نقل هذه البضاعة أو تلك والزبون يتلقفه الحمالون وهو لا زال لم ينو بعد الشراء.

- أظنك تعلم أن القانون لا يحمي المتغافلين.

دون أن يرفع صوته..

- أنت أكبر المغفلين.

- لحسن حظك لم أتبين ما قلت، وإلا كنت أتهمتك بإهانة موظف حكومي يؤدي مهمته.

- لمَ "تحقر" أنت حمالاً ضعيفًا يقوم بمهمته الشريفة وخدمته النبيلة، لينحت قوت يومه، بعرق جبينه...

التزم الصمت، وكأن فرط حرارة الضحى من جهة، وفرط الكلام من أخرى أرهقاه، فلم تعد قوته تسمح بغير التفكير بصمت وكأني أقرأ ما يجول بداخله: إذا كان الجهاز مهربًا، فلم لا يحجزون على البضائع الكامنة داخل الدكاكين وفي المستودعات؟ ولم يحاربون التهريب على شريط الحدود؟ لم لا يجعل من المهرب الموقوف عبرة للآخرين؟ لم يقبض عليه ويطلق سراحه فيعود على التو إلى ممارسة نشاطه المحظور؟ أم أن التهريب بالنسبة لهم يبدأ عند خروج البضاعة من باب الدكان؟ بل بعد شحن البضاعة على ظهر العربات؟

حاول بكل ما أوتي من قوة أن يتخلص من هذا الكابوس الرابض على أنفاسه مع بداية هذه الصبيحة إلى أن استنفذ كل

ما بجعبته من وسائل، وأخذ الخوف من الوقوع في كارثة يتسرب إليه.. ترى ما الذي سيحل به عند بلوغه مكتب محاربة التهريب؟ سوف تحجز عربته - وسيلته للعيش - بالتأكيد سيحاكم، سيحكم عليه بغرامة لن يستطيع دفعها ولا تسديدها، ويزج به في السجن، وهكذا ستغرق عائلته في مستنقع الفقر والبؤس. لم ييأس من محاولاته، وكلها كانت تخر أمام إصرارهم.

كانت اللجنة مؤلفة من ثلاثة عناصر ركب اثنان سيارة حكومية، في حين اقتعد الثالث مكانًا بجانب الحمَّال على العربة.

على طول المسافة، لم يهدأ له بال، ولا استطاع التركيز، كل ما ظل يقوى عليه هو تصعيد الزفرات المحرقة وإصدار آهات تنفيسا من الصخرة الرابضة على الكاهل. أنتابه ما يشبه الشرود، والتهريب لا يفارقه، وخاصة هذه الطريقة المعتمدة في محاربته... لابد أن من ينظر من المسؤولين جالس في مكتبه يعاني من الفراغ والروتين، كل انشغاله منصب على حل شبكات الكلمات بشتى نعوتها وحتى المعنكبة منها، ولذلك ارتأى حل شبكة التهريب بطريقة معكوسة، كأن يجهز على الحمالين أولا ويضرب بيد من حديد، وحين لا يبقى في السوق حمال، تبقى البضائع في الدكاكين، وأمام الكساد والبوار يُغلق الدكاكين

وهكذا يجد المهربون أنفسهم مجبرين على تجميد نشاطهم قبل الموت.

لكن لما كانت المدينة حدودية، ولا أثر فيها لأي نشاط اقتصادي يمكنه سد حاجة المواطن إلى الشغل، والمسؤول يدرك أكثر من غيره أن لا مفر من التهريب، كان عليه إتقان لعبة التمويه، يغالط رؤساءه من جهة مادام هو ذاته أحد خيوط الشبكة العنكبوتية، إذ يكمن دوره في تأمين الطريق حتى تصل البضائع سالمة إلى المستودعات، ورفع محاضر إلى الجهات العليا وتقارير بأسماء الحمالين ومن في مثل أحوالهم، والغريب هو الفرحة التي تنتابه لما يصرف له تعويض عن هذا النوع من العمل ويموه على المهربين من جهة أخرى، لما يضيق عنهم الخناق، يدعي أن الجهات العليا اشتمت رائحة نتنة، فلم يعد يسيطر على الوضع، لان بعض المهربين - ممن يعرفهم ولا يرغب الآن في الكشف عن أسمائهم - اشتكوه لدى الجهات العليا. وأمام ما يحسبه الأباطرة من خسارة نتيجة تراجع نشاطهم، تنهال عليه صلاتهم فيعدهم أنه سيبذل قصارى جهده. وما الحمال إلا مشهد من فصول التمويه.

رفع رأسه ليقع بصره فجأة على السيارة الحكومية، يدفعها الرجلان يمضيان بها في اتجاه رجل على قارعة الطريق بيده قمع ركب من قنينة بلاستيكية من قنينات المرطبات، من الحجم

الذي يسع لترين، وخرطوم بلاستيكي أيضًا يناهز طوله نصف المتر. سحب الحمال بيده اليمنى حبل الفرملة سحبًا خفيفًا اضطر الحصان على المشي، حتى يتسنى له رؤية المشهد. اقترب الرجل بيديه قنينتان تسع كل منهما خمس لترات من البنزين، صب إحداهما في خزان السيارة، وأما الثانية فشحنت.

أقلعت السيارة والشاب ينظر إلى لوحة السيارة...

وهنا سمع الرجل الحمال وقد طار صوابه:

- ما هذا يا إلاهي ؟ أهذه لجنة محاربة التهريب ؟ لا بد أني أحلم..

صفع خده الأيمن.. وثنى بالكف الأيسر.. وما زال لم يدرك أهو في حلم أم في حقيقة ؟".

(٧)

ما تمتعتُ بمهد فيك يا بلدي وأعلم أني لن أحظ بقبر في تربتك وبين أحضانك، وأملي معقودٌ على رحمةٍ من البحر وعلى أمومته البديلة. البحر أمامي ومن بعده الفردوس، وخلفي وطني وبه سياط القمع، فليس لي والله غير المركب الخشبي المتآكل، فباسم الله والله أكبر...

قال هذا وهو في غفلة من أن حججًا من البحر الذي ينوي ركوبه هو أيضًا قطعة من وطنه وجزءٌ منه.

انطلقت المركبة حبلى وعلى ظهرها ممن يحملون أرواحهم على راحتهم ما يزيد على ستين نسمة، في ليلٍ بهيمٍ دامس يستوي فيه الأعمى والبصير، لا يعون الأشياء من حولهم إلا عن طريق اللمس لأن السمع يملأه صوت البحر المهول وحده، لا يكاد المرء يسمع من يلتصق به في مركب الموت هذا وهو يصيح بأعلى صوته، والجالس بجواره كمن هو في حاجة لما يؤنس وحدته الداخلية، يهزه بيده: "ماذا تقول؟" ويجيبه بأقصى صوته والجار دون أن تبين صوته -"لقد تبولت في سروالي.. لم استطع الإمساك رغم أني أفرغت الشحنة قبل الإقلاع"-. يهز رأسه كمن سمع واستوعب وعقب بهذه الحركة تترجم ما يملأ

الصدر، كأنها تقول: "كان الله في عونك، أو لقد سبقتك إلى ذلك، أو ما خفي وما سيأتي أعظم".

هذه الجماعة ألقت بنفسها إلى البحر يبتلى بها، بعد أن عجزت عن إلقاء نفسها في نار "البوعزيزي". في هذا اليم العظيم تسبح هذه النفوس الضعيفة في هول صمتها الرهيب. كل فرد لابد يعيش عالمه، يحلم، أو يستعيد ذكريات أو يعيش لحظات الأنس، أو يحن إلى الأهل. فبعدما كانوا وقبل العد العكسي يمرحون، يتندرون يؤلفون الحكايات، يرسمون الأحلام، انقلب الوضع إلى مأتم، وكأنهم يرون أنفسهم بعض أشلاء جمعت في أكياس سوداء. لا تكاد ترى غير دمع ينهمر من عين كأنها سملت، وزفرات تصاعد وتعقبها آهات حبلى بالمعاناة.

داخل المركب، صحبة رفاقي في المصير بدوري ألتفت إلى قلبي أتلمسه فإذا به مثخن، جراحه أعمق من قعر البحر، لن تندمل ما عزَّ اللقاء، وأخشى أن يبقى عزيزًا إلى يوم الدين. تنظر إلى يمينك، ثم إلى شمالك، وتعيد الكرة فلا ترى غير وجوه ذابلة، انسحب منها الدم، وكأنه يعزف عن مرافقتنا مخافة أن يقع شرابًا للكائنات البحرية، ولا تسمع سوى زفرات تصاعد من الأعماق تحرق كل عضو صادفته في مسلكها، وما عدا ذلك يملأه الصمت، من حين لآخر ترى شفاه تتحرك دون أن تنبس، لعلها تقرأ آية أو تتضرع بدعاء تعلمه قبل أن يشحن ذاته داخل

المركب. وسرعان ما تحذو شفاه أخرى حذوها، تذكر الله أو تتشهد.

على بساط الحنين حملتني سبحة سقراطية لتحطَّ بي أمام صورة والدي"بوعزه" لا تفارق مخيلتي، لا زال لحد الآن يجهل ما أقدمت عليه، ولا يزال يحلم أن يرى ابنه مهندمًا، يركب سيارة سوداء، تصدر منه الأوامر وغيره ينفذ، يا لخيبة أمله فيَّ! أحاول أن أتصور حسرته بعد أن ينزل عليه الخبر نزول صاعقة، آه يا والدي لم يخطر ببالي فيما قبل الآن أن قد تفقد حياتك ـ لا قدر الله ـ سامحني يا من أنفق العمر ثمنًا لمستقبلي الأجوف لقد خذلتك ولم أكن جديرًا بهذه التضحيات الجسام...

إلى جانب هذه الصورة صورة والدتي"البتول" يبدو على قسمات وجهها أنها أكبر من سنها في بداية العقد الخامس، كما عهدتها ممشوقة القد، نحيفة نحافة عارضات الأزياء دون نعومتهن، تكاد عظام وجهها تطل من خلف قسماته، أثر سوء التغذية باد. على ظهر يديها عروق بارزة تترجم بلا رياء حياة امرأة حبلى بالشقاء. لم يكن لها همٌّ أكبر من الإنجاب، مشروع استثماري فكرته مستمدة من عهد موغل في القدم كانت فعالة في ذالك العهد، فكرة لا زالت العائلات النازحة من البادية تسقطها على الحياة في عصر الكومبيوتر بعقلية لا تزال تحت قياس الزمان باعتماد الساعة المليـة، أمي تبرر تعدد أفراد

العائلة بسد حاجات العائلة ولكل مهمته داخلها، متجاهلة أن تعدد أفراد العائلة هو سبب الحاجة لأن في نهاية الأمر الاعتماد على الأطفال ترجمة صريحة لعجز الوالدين على تحمل مسئوليتهما كاملة تجاه هذه المؤسسة، وتستشهد بواقع عاشته يدحض ما تدافع عنه أكثر مما يزكيه: كنا نعيش في البادية، منا من يرعى القطيع، ومن يعتني بالحرث، ومن يجوب الأسواق ليبيع بهائم ويشتري أخرى، أما الإناث فمنهن من تكنس الحظائر ومن تحلب الماعز ومن يقمن بطحن الحبوب ومن يجلبن الماء ومن يجلبن الحطب على ظهر الدواب... وما درت أن حيث تعيش اليوم لا غنم ولا ماعز ولا حرث ولا حصاد، والكل يعجز عن متابعة الدراسة وتتلقفه شوارع المدينة تربيه على طريقتها. فلا ينجو من شرها إلا من رحم ربك، وعوض أن ترتاح تزيد شقاء... أراها قابعة أو جالسة القرفصاء كفاها على خديها، ومرفقاها على ركبتيها مثقلة بالحسرة تخفف من حدتها دمعات تنساب راسمة على الوجنة الذابلة أخاديد تنضاف لما سبق أن حفرته السنين، من حين لآخر تصعد زفرات تلهب كبدها. تتحسس اهتزازات الهاتف النقال، وقد وضعته في صدرها، مذ أصبحت تفقد سمعها، وكثيرًا ما وقعت ضحية لإنذار خاطئ، فتنخلع مفزوعة وقد طار صوابها. تنتظر سماع صوت ابنها، شاهدًا على كونه لا يزال حيًّا فتعود إليها بعض طمأنينتها أو صوتًا لغير ابنها، ودون سماع الخطاب تكون قد تعرضت

لنوبة قلبية تقضي على حياتها... أراها تسأل البحر لي الرحمة والقرش الرأفة بعظامي وتراها بعين الأم طرية لا تقوى على المقاومة وتدعو الله أن يجيبها سؤالها ويستجيب دعاءها.

معاناة عائلات لا ذنب ارتكبت غير وجودها في هذه الحياة، جيء بها ولا تعي ما ستؤول إليه، قلوب واجفة، مشرئبة تترقب ما ستحمله لها اللحظات التي تسرمدت وكأن ساعة الزمن قد توقفت عقاربه.

يا بلادي من المسؤول عن عذاب هؤلاء الأبرياء ؟
حاولت جاهدًا أن أعثر في سجلي عن ذنب ارتكبته أعاقب على فعله ويعاقب معي أهلي، فلم أجدني إلا ضحية، أرتكبت في حقي جرائم لا تحصى ولا تعد. وأفظع ما ارتكب في حقي هو ما حزته من إرث كبير من الفقر وإنفاق سنوات طوال في المدرسة بلا طائل.
هكذا وجدتني مضطرًا للهجرة خاصة عندما اتخذ أبناء أمي من إذلالي شريعة وألبسوني رفضي الواقع المزري جريمة.

عاصفة ماردة عاتية هوجاء، أعتى من عتو البحر، في ليلة ليلاء، من بعيد ينبعث صوت لا كالأصوات المعروفة والمألوفة، أخذ يكبر ويكبر وفجأة خبا لا بد أن قوته تعدت عتبات أسماعنا. ساد صمت رهيب لا يكسره سوى صوت الماء يشقه القارب في أناة بعد أن خفض" الأميرال" من سرعة مركبه، لا.. أعتقد أن

محرك القارب قد تعطل، وخلت المركب وقد أحاط به الموج كرياضي (السورف) وقد غاب في نفق من الموج... ولم أدر غير أني لم أعد أعي شيئًا...

عدت تدريجيا إلى وعيي... لا أدري كم لبثت غير واع؛ أيومًا أم بعض يوم أم أقل من ذلك أم أكثر. وجدتني أكاد أختنق، أتنفس بصعوبة كبيرة، وكأن قلبي يفضل التوقف، أحسست ببرد قارص يلفح جسمي، برد اصطكت له أسناني ورقصت له أعضاء جسمي. حاولت تحريك يدي فلم أجد لها مجالاً للحركة، حاولت مع الأخرى دون جدوى. وعبثًا حاولت بإحدى رجلي، ثم كذلك فعلت بالثانية، وكذلك جربت مع رأسي وكل محاولاتي باءت بالفشل. رباه أشلت حركتي ؟...

رفعت بصري إلى الأعلى، السماء مزروعة بالنجوم، على يميني وعلى يساري سواد مطبق، تذكرت المركب، تذكرت شحنتها، لا أحد، لا مركب، استبد بي الرعب، صحت بأعلى صوتي، ولا حياة لمن تنادي، تضاعف خوفي، بحثت من حولي، وجوارحي قد تعطلت، حتى اللمس خانني تحت تأثير البرد، فلا شم ولا لمس ولا بصر ولا حركة وأنا أطفو.

تداركني لطف رباني لما قرع سمعي صوت لآدمي، أحسست للحظة بما يشبه الارتياح، غاب الصوت، وأدركت أنني في وضع لا أحسد عليه، يتهيأ لي سماع أصوات، أهذا بداية

النهاية؟ في غمرة الهول، ووضع غريق يتمنى أن تلوح له قشة يتمسك بها، أخذت من جديد أسمع ذلك الصوت وكأنه ينبعث من بئر عميقة حتى اختلط الصوت بالصدى. لقد جننت لا محالة. خاصة وأن الصوت يكبر شيئًا فشيئًا، اقشعر بدني وانتصب شعري، وارتعش جسمي وقد اجتاحته برودة ما أحسست مثلها من قبل. تضاعف الصوت وتكرر:

- " أنت محمولٌ على كف وطنك.. أنت على كف وطنك.. على ظهر وطنك ".

- يا إلهي لمن هذا الصوت ؟!

التفتُ يمينًا، التفتُ شمالاً ولم أر غير ظلام دامس، لم أستطع أن أتبين مصدر الصوت، انتابني هلع، لم أستطع السيطرة على نفسي، فاضطربت كثيرًا، وتهيأ لي أني سمعت الصوت للمرة الثانية والثالثة، حاولت قراءة آية قرآنية فلم أعثر في رأسي على أي أثر من كل ما أحفظه. ارتبكت، كاد صوابي يطير، بل طار !... لا أدري ما الذي حصل معي، أرهفت سمعي قليلاً بعدما لفت انتباهي بقاء الصوت متواصلاً دون انقطاع :

- " أنا الوطن وأنت تركب ظهري، ولقد سألتك للتو عن السبب الذي ألقاك في البحر ".

رباه أنا على ظهر حوت ! حوت يتقن الحديث ! أتحولت إلى رسم متحرك بل إلى سندباد ؟!

حاولت التركيز قصد التغلب على انفعالاتي، بسملت وحمدلت وكبرت وقلت كل ما تبادر إلى ذهني من دعاء أو حديث في عشوائية سواء له علاقة بالظرف أو لا علاقة له. فعلاً أحسست بقدر من الأمان وأخذت أتمالك نفسي باذلا في ذلك كل ما كان لي حينها من طاقة، وحاولت متلعثمًا أن أتأكد من أن محاوري لا يريد بي شرًّا أكثر مما أنا غار ق فيه، وانتظرت حتى أسمعه من جديد.

obeikandl.com

(٨)

- أيها الشاب لا تخف، أنت لم تتحرك قيد أنملة، أنت داخل بطن وطنك في صورته الحقيقية، أنت على مركبك على مياهنا ونحن نحتضنك ما الذي رمى بك إلى عالم المخاطرة ؟ ألا تدرك خطورة البحر وأهواله ؟

- يا من تدعي أنك بطن وطني (أيها الحوت) هل فعلا أنت من كلمني ؟

- نعم، حاولت أن أعرف -بالطبع إذا سمحت – سبب (ركوبك هول البحر، تهجر حضني الدافئ).

رغم هلعي غمغمت:

- ما الأمر ؟ ما هذه الرقة ؟ ومتى عاد ظهر الحوت حضن بلادي؟؟!!! ثم استأنفت:

- لا بأس أيها الحوت/ الأم/ الوطن، لكن قبل ذلك، هناك ما يحيرني أود لو تخلصني من هذه الحيرة.

- لا عليك، هات ما عندك.

- لكم تمنيت أن أحظى ببصيص نور يمكنني من رؤية عالمي هذا ! كما تمنيت لو أرى وجهي في مرآة لأتأكد مني وهل لازلت أنا أم صرت أحدًا آخر غيري ! وألقي نظرة على لون شعري

obeikandi.com

وهل لا يزال أسود أم غزا الشيب مفرقي، أم اشتعل الرأس كله شيبًا كما يحدث في الحكايات العجائبية ! لا أتذكر إلا أني كنت داخل مركبة فسمعت ومن كان معي صوتًا مهولاً ثم صمتًا مطبقًا، أما فيما عدا هذا فلا أذكر شيئًا...

- اطمئن فأنت لا تزال على حالك، وعلى هيئتك، غير أن وزنك قد خف ولم تعد من كنت من قبل.

- ماذا تقصد في العبارة الأخيرة ؟

- لاشيء، غير أن هذه التجربة ستجعلك لا محالة تعيد النظر في طريقة نظرتك للعالم من حولك.

- أتسخر مني؟ كيف لي وأنا عالق في هذا الجحيم أن يتسنى لي النظر أو إعادة النظر؟ وقبل كل شيء ولكي أحس بقليل من الأمان، ألا يحق لي أن أتأكد من هوية مخاطبي، وإذا لم يكن إنسانًا كيف يخاطبني بلغتي ولساني ؟

- ألم تكتسب لغتك في حضني ؟!

- هذا إذا كنت فعلاً ما تدعيه.

- أمر بسيط، لي من القدرة ما يمكنني من التحول متى شئت وكيفما شئت.

- الله أكبر !.. "وما أوتيتُ من القدرة إلا قليلا ".

- والآن هل يمكنني أن أحظ بجواب عن سؤالي السابق ؟

- أجل لكن قبل ذلك، من فضلك، ذكرني به !

ـ سألتك عن سبب ركوبك البحر وعن مدى إدراكك لخطورته.

ـ أدرك خطورة الموج، أدرك خطورة ركوب البحر، أدرك مفعول أسنان القرش، إلا أن فكيه أرحم من رحاك، ففي فتكه رأفة بضحيته، فهو يخلص عليها في كسر ثانية، لا يدع مجالاً للمعاناة، أما على البر فتُلاك وتلاك، ترمي بك أضراس في اتجاه أخرى، دون أن تضع حدًا لآلامك، ولا أدلَّ على ذلك من القذف العنيف الذي رمى بي إلى البحر، ورغم ذلك لم يقلني وشأني.

ـ لا تلق بالاً، لا تخف فأنا أجيرك، وأحميك من كل خطر قد يتهددك، وإذا كنت تشعر بالبرد أوقدت لك الشمس في جوفي، حتى تستعيد عافيتك. وتبصر كل ما يجري عن كثب.

ـ أو تفعل بي كل هذا وتسمح لنفسك بعد كل ماتسببه من معاناة؟ لكن اعذرني، قلت: "جوفك"!!! هل سبق أن كنت في جوفك ؟!

ـ لا تقلق ستكون في جناح ثانٍ، حيث الحياة طبيعية. لقد كنت دائمًا في جوفي، فيه ولدت وفيه نشأت وفيه ستقضي نحبك.

بعد تردد بدا واهٍ أمام زمهرير البرد؛ وافقت... أحسست بذهول شديد، طار صوابي افتقدت معه كل لياقة لما رأيت العالم من حولي، استبد بي الذهول مرة أخرى،لم يعد جوف الوطن/الحوت ذلك الجوف عرفته ويعرفه الجميع، لا مجال للمقارنة، كنت أنتظر أن استدفئ رغم المادة اللزجة، رغم ضيق المكان، لكن وجدتني في فضاء وكأن الحوت طوح بي إلى مكان لا علاقة له

بجوفه؛ عالم قائم بذاته. ماذا أرى؟ فركت وأعدت فرك عيني، أغمضهما لحظة، لا أبصر إلا نفس المنظر. لابد أني أحلم، بدون أدنى شك. طيب مادمت أحلم فلم لا أستمر في الحلم؟ ما هذا؟ هذه الوجوه مألوفة، ليست غريبة، هذه المجالس هنا وهناك كالتي نشاهدها على الشاشة الرسمية. ما لفت انتباهي ولم يكن لي به علم هو مجالس اللهو والخلاعة والمجون والجنس وما يحيط بكل ذلك من مخضود ومنضود ومفصود والكل يهتز على أنغام الناي والعود. أينما وجهت بصرك وقع على نهر جار وحور عاريات يستلقين والنهد نافر على شكل ما الفت رؤيته على لوحات كبار فناني الغرب. كان موسم الانتخابات على قدم وساق. لم أدر لم أبعدت في لمح البصر قبل أن أجيل النظر، لقد فاتتني مشاهد كثيرة، ربما ما رأيته هو الشجرة التي تتوارى خلفها الغابة... نسيت أن أشكر وطني/الحوت. طلع الصباح، أرسلت الشمس نورها فحرارتها. أخذت الحياة تدب في أعضائي تدريجيًا، شعرت بدفء الشمس يعيد لي الحياة لما سمعت الصوت.

(٩)

لعل شكواك هي نفس ما يدعيه كل من غرقوا، أو ابتلعهم البحر، أو استطاعوا النجاة بأنفسهم، أو من حالفهم الحظ على الوصول إلى الضفة المقابلة لتبدأ معهم فصول جديدة من المعاناة.

لم أتعمد إرجاء الجواب، بل تعلق ذهني بما يحصل في الجوف كما ينشغل الطفل عن نداء أحدهم بما بين يديه من هدايا جميلة، فظللت شاردًا كأني لم أصدق ما رأيته أو على الأقل لم أستوعب، فبقيت صامتًا، تائهًا لا أفكر وكأن عقلي تجمد، وأصبت بدوار، رغبت في الاستلقاء لكن لا مجال لذلك.

انتبه الحوت/الوطن لحالي، ربما رقَّ لها فسألني. لم أحفل بسؤاله. لا أدري كم من الوقت استغرقتني تلك الحالة. أيقظتني من غيبوبتي أشعة الشمس الحارة تحرق بشرتي. هنا سمعت الحوت/الوطن يقترح علي أن يخفف من حدة وهج الشمس ليجنبني حرارة تلك الأشعة ـ ما أطيب معاملة هذا الحوت/الوطن إن شاء وقاك من الحر ووقاك من القر، إن شاء آواك وإن أبى أرداك! ـ لم أنتظر الالتماس أو الرجاء. وأخذت أجيل البصر، وأمعن النظر؛ حقيقة هي الغابة بوحوشها وكواسرها وجوارحها، تبسط سلطانها في البلاد، ولكل منها مجال

اختصاصها ورقعتها التي تعدها ملكًا، لا يجوز لغير أفرادها ممارسة أي نشاط فيها مهما كان نوعه، إلا بترخيص من مجلس الجماعة المستقبلة وبرضاها، وكثيرًا ما يحدث هذا مع أباطرة الجماعات، فتراهم الصباح يلبسون لونًا وفي المساء يخلعونه ليرتدوا غيره؛ كثرة الألوان مع انعدام الوجوه؛ وحتى إن أصرَّ أحدهم على إبقاء وجهه، أرغم على حمله في قفاه.

رغم المدنية ورغم التحضر، لا زال الترحال، بحثًا عن الاغتناء، لا زالت الإغارة على دم الضعفاء شريعة، لا زال وأد الديمقراطية كلما ازدان بها فراش البلاد سنة، شأنه شأن عصابات المافيا الإيطالية في الولايات المتحدة الأمريكية، كما صورتها أفلام هوليود. هذه الطوائف بمثابة الشوكة في حلق الوطن/الحوت، تستحوذ على جوفه، تمسك بخناقه، بزمام الأمور، وتعرقل كل ما يتعارض مع توجهاته. يتهيأ للمرء أن لها مصالح متضاربة وأهداف مختلفة ومسالك متنوعة لكن كل الجراء أبناء ذئبة.

شاهدت ما فيه الكفاية شعرت بالاشمئزاز. وأنا في سبحة سقراطية، لم أوجه قدمي وجهة معينة، فسرت وجسدي محمولاً على خطوي، أما تفكيري فعلى أجنحة عفريت. ما أنزلني على الأرض، لا بل في جوف الحوت/الوطن غير جلبة وضجيج وصراخ، ولافتات وشعارات. أخذت اتجاه مبعث هذه القيامة، استوقفي شخصان ماردان يقف كل واحد منهما إلى جهة من

جهتي المدخل؛ مدخل بدا على شكل قوس، صنعٌ قديم، صخور عظيمة رصفت في شكل هندسي بديع. بإشارة يد طلبا مني التوقف، رفعت بصري لألمح أنهما ينظران بعيدًا خلفي وباهتمام فائق. التفت لأرى خلفي علمًا أبيض يخفق دون أن أتبين اليد التي حركته، طريقة للتواصل فيما بينهم.

أصبح النور يشع تدريجيا كلما تقدمت إلى الأمام. لم أعد أسمع ما كنت أسمعه. أفعلاً خبا الصراخ أم أن حاستي قد كذبتني. واصلت سعيي، فإذا بي كلما تقدمت أكثر دغدغت رائحة نتنة أنفي. لم يكن معي محارم، فاعتمدت على يدي لإغلاق خياشيمي تجنبًا لأريج النتانة، أشار علي تفكيري بالعودة، خاصة وأن هذه الرائحة أصبحت لا تطاق. أخذ بدني يقشعر وأحسست برغبة في التقيؤ، ودوار برأسي خفيف. عاد الصراخ يملأ المكان، عن اليمين، عن الشمال، والأضواء الكاشفة تنير الأرجاء بعد أن أحكم الظلام تغليف القلوب. فجأة أطلقت إنارة قوية جدًا، لم أعد أبصر، وشيئًا فشيئًا أفتح عيني أحجب عنها الأشعة بيدي، افركها ومرَّ وقتٌ غير يسير قبل أن أتبين الخيط لأبيض من الخيط الأسود...

رباه ! ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ كيف أجنس هذه المخلوقات ؟ لن أستطيع وتنقصني حاستا الشم والسمع، أما الأولى فلأن كلاً من الشهيق والزفير يمران عبر فمي، وأما الثانية فلأن اختلاط

الأصوات يعيق سمعي. سأحاول بالاعتماد على بصري فقط؛ سوق ما رأيت في حياتي ما يشبهها. بداخل حظيرة، مئات بل آلاف الأشخاص، ذكور وإناث، عليهم أسمال رثة، بل منهم من ليس معه غير خرقة لفها أو لفتها حول عورة العورات. تطأ أقدامهم الحافية برازهم المعجون ببولهم، لم أر لهم طعامًا ولا شرابًا، إلا أن نفاياتهم توحي أنهم يحظون بالقليل منه. دهليز رطوبته خانقة، ندي للغاية، لم تقع عيني على فراش لهم أو لحاف. لو كانت لرأيت العراة منهم يلفون بها أجسادهم العارية. فغرت فاي، أصابني ذهول لم أشهده من قبل. أخذت هذه الكائنات "الوضيعة" تنظر إليَّ بعين كسيرة ملؤها حسرة وأسى، كأنها تتوسلني معتقدة أن بإمكاني تخليصها. رفعت بصري فلمحت بعضهم يلوح بيده في اتجاهي، لم أعر الأمر كبير اهتمام، سمعت من يناديني باسمي، توقفت فجأة، تبينت النداء، فعلاً هناك من يناديني، أخذوا يحاولون التقدم وسط الحشد وهم يعملون مناكبهم حتى يشقوا ممرًا يمكنهم من الاقتراب مني أكثر. وقفت منتظرًا المفاجأة، ستكون بالطبع غير سارة، استطعت أن أتبين ملامح بعض الوجوه، إنها للذين كانوا معي على مركب الموت/الحياة. حاولت الدنو منهم قدر ما نتمكن من سماع حديثنا. فانبرى أحدهم يبغي تكليمي، لكن حسرته حالت دون ذلك، ولاحظت آخر يستجمع قواه، فأشار في عجالة إلى ما آل إليه وضعهم، وسألني عما صرت إليه، ودعاني إلى شكر

الله، الذي لم ينزلني منزلتهم. ومن خلفه بلغني صوت من كان ونحن نستعد لخوض غمار الرحلة، يخفف عنا بجملة من الحكايات منها ما كان يدعي أنها واقعية ومنها ما لم يكن يقدر على الزعم ما دام قد سبق أن سمعها الجميع من أفواه رواة غيره. وهو يقول بنبرة عالية حتى يصلني خطابه:

- ما رأيك في إسطبلنا هذا ؟ أتذكر حكاية الإسطبل التي قصصتها عليكم ؟ على الأقل كان ذاك إسطبلاً للحيوانات، أما ذا فحظيرة للآدمين !

سلطت أضواء قوية، تختلف في أشكالها وفي ألوانها وفي قوتها عن الأولى على ناحية بعيدة، ما تمكنت من تبين ما يجري هناك إلا بعد جهد كبير لأقطع المسافة البعيدة بين المكانين. شتان بين الحظيرة والمنصات حيث الخطباء يتمشدقون يخرجون كلامًا مطلسمًا فتسمعهم وقد وقفوا وقفة طالما وقفوا أمام المرآة يتدربون عليها بدون أن تنعكس ملامح وجوههم على المرآة (سبحان الله) و يتدربون على إلقاء التفاهات يستبلدون المخاطب ويشتمون ذكاءه :

- أيها المناضلون، أيتها المناضلات !

- أيها الرفاق، أيتها الرفيقات !

- أيها المواطنون، أيتها، المواطنات !

- أيها الناخبون أيتها الناخبات !

وكلهم قبل الشروع في الكلام يبللون مخارج الحروف بجرعة من سائل معد ومحضر !! يعلمون أن العبارات سترّن عبر الجهاز الصائت ما دامت مفتعلة، ويعيدون الكرة كلما حدث في أوساط المخاطبين ما يستفزهم أو يثير انفعالهم.

- "نحن في حزبنا العريق، ونحن السباقون، كنا دائما نسبق إلى بيولوجيا السياسة، وهندسة المواقف وفلسفة السبق، ولا أدل على ذلك من أن مباشرة، على إثر الزيارة الميمونة إلى إحدى جهات الوطن العزيز سقانا الله غيثًا نافعًا، فلنتسابق ولنكن دائما سباقين إلى الخير".

بعد أن مجت أذني هذا الهراء، شدني الحنين إلى رفاقي في الحظيرة واختلفت في اتجاههم لألقي عليهم التحية وما وصلت إلا والتعب قد هدني، لكن هول المنظر الذي كان بمثابة "دوش بارد" أذهب عني التعب: رأيت سماسرة يلبسون غير لباسهم يضعون على وجوههم براقع، بأيديهم رزمًا من الأوراق المالية، وخلفهم أتباعهم يحملون ويحرسون محافظ المال.
والمقيمون في الحظيرة يقتاتون من برازهم إن وجد، يساومون على ضمائرهم، بل يرغمون على المساومة، تُشترى ذممهم بإظهار المال أمام عيونهم وإخفائه عنها (لعبة بين أوُ رد). يأخذون منهم بطاقات هويتهم حتى إذا أدلوا يوم الميعاد

بالصوت أعيدت إليهم وأعيدوا إلى الحظيرة. وسماعات النقال لا تبارح الأذن، يخال المرء وكأنه في بورصة للذمم :

- ما ذا عن البضاعة ؟

- وافرة ولكني ألاحظ أن عدد المتسوقين يتكاثر.

- ماذا عن الأسعار؟هل ارتفعت؟

- لازالت لحد الآن مستقرة، وعلى ما يبدو لن تظل على حالها، لقد أقترب الموعد بما فيه الكفاية وحان الوقت لارتفاع السعر.

- إذن اشتر أكبر عدد ممكن، ولا تخبر أحدًا منهم، واحرص على أن يبقى اللون سرًّا، لقد توصلت قبل قليل من اللون الملون بخطاب يطلب ألف صوت في دائرته، وبسعر معقول سيدر علينا ربحًا وافرًا، انتبه لعملك ! لا تتهاون ! لا تثق بأحد !.

- اسمع أيها المساعد يرغب"المعلم" في ألف صوت في دائرة صاحب اللون الملون ولا تصرح باللون حتى أخبرك به، هيا باشر عملك !

أخذت أتجول في الأسواق بعيدًا عن المنصات والخطب، بعيدًا عن إنسان الحظيرة اتجهت إلى حيث المشاهير، أباطرة المال يلونون نجوم الغناء، ويلوثون أبطال الرياضة ونجوم السينما، يعلمون أن تلوين نجم غناء تلوين لكل عشاقه، وتلويث بطل مكسب يربحون من ورائه قطعان عشاقه، ولذلك تراهم يساقون مجرورين بحبل المال المغري، وعلى مرأى ومسمع من العالم

العاقل يرددون ما لقنوه كالببغاوات، وهم يلبسون ألوان بهلوانية، والغريب أن عشاقهم وجماهيرهم يتشبهون بهم ببصيرة عمياء. كل حركة لا تتم إلا بحضور المرأة /الديكور تزين جنبات المكان وتؤثث المؤسسة الديموقراطية، وبحضور المرأة /الجسد، والمرأة/الإغراء في كواليس وفي رقعة العمليات.

obeikandl.com

(١٠)

أدركني لطف رباني، أبعدني عن عالم الأسواق والتجارة والأرقام والألوان فوجدتني أشمُّ هواءً طاهرًا نقيًا.

بعد الاطمئنان على حالي، أعاد الوطن/الحوت علي السؤال، واعتذرت مرة أخرى؛ مرجئًا الجواب، لأستفسر عما يحدث في ربوعه، لكنه أصر على سماع الجواب قبل الخوض في ما يجري في عالمه، وأنشأت أجيب:

ـ قد تتعدد الأسباب لكن المعاناة واحدة، ربما للحكايات تشابه، أو قواسم مشتركة، لكن حكايتي تختلف عن كل الحكايا:

منذ أن أصبحت أعي العالم من حولي وأبي يشتغل حمالاً "شقاء سزيف" يفرغ الشاحنات المحملة بأكياس القمح، أو يشحنها، قد يصل وزن الكيس الواحد قنطارًا، يحمل القنطار تلو القنطار ولا ينوبه من كل ذلك سوى كسرة خبز. حرص رغم الظروف على تعليمي وهو يجهل كل ما يتعلق بالدراسة، لا يعرف إلا أن التعلم هو سبيل الحياة الكريمة، والطريق نحو ضمان عيش نظيف كما كان يحلو له أن يسميه، أما المسالك التعليمية وتفرعاتها وتشعباتها وما يتطلبه سوق الشغل من كفاءات فلا علم له بها. كل ما يشغل باله هو أن يبتعد ابنه عن كسب قوت يومه عن طريق الشقاء المشفوع بالابتسامة الذليلة بعد تلقي الصفعة

على القفا والركلة على المؤخرة. لا يستسيغ فكرة أن أعيش على الهوان الذي يحيا عليه. وهذه عبارة أصبحت لازمة يرددها كلما كان الشقاء موضوع الحديث: "لا فرق بيني وبين حمار يظل محملاً، يتلقى على جنبيه وخزًا وعلى ظهره ضربًا، وفي المساء تعلق له مخلاة وقد حوت بعض الحبوب". قد تكون ظروفي هذه أرحم بكثير من ظروف أناس آخرين.

كم كانت فرحته كبيرة لما حزت شهادة البكلوريا، وكأنه رأى أبواب المستقبل الزاهر مفتوحة على المصراعين، يدخل ابنه من حيث يشاء، لعل ما فكر فيه هو أن ابنه قد أصبح رجلاً يعول عليه وبالتالي سيصرف عن والده عذاب "سزيف". كان من وقت لآخر يعبر عن تسرعه: ألا زالوا لم يوظفوك؟ إذا اقترحوا عليك الاشتغال في المخزن لا تقبل ولا تلبس الزي الرسمي - لم يكن يبرر هذا النهي، ربما لما بلغ سمعه من حكايات وقصص ووقائع ترتبط بهذه الشريحة من المجتمع التي تمثل العصا التي يبطش بها "إخوة العفيف"- لا يدري أن ابنه تقدم بطلبات للمشاركة في مباريات عدة من هذا النوع، فُرفضت عن طريق الانتقاء الأولي. كما لا يدري أيضًا أن هذه الشهادة لم تعد ذات قيمة تذكر ولم يعد لها وظيفة سوى فتح باب بعض الكليات التي لا تنفع شواهدها إلا للاحتجاج والاعتصام أمام المؤسسات الحكومية. ها هي الشهادة قيد ملفي، وأنا استعد لاستقبال السنة الجامعية علي أن أجهز ملفًا بعشرات النسخ تتطلب المصادقة،

والمصادقة تتطلب مصاريف، لا يمكنني أن أطلبها من أب فقير يعتقد أن ابنه صارت الدنيا ملك يده. ملف لا قيمة للشواهد التي يحويها وقد لا تساوي قدر مصاريف رسوم المصادقة التي تقدر بميزانية.

داخل المكتب، والجيب أفرغ من فؤاد أم موسى أقدم رجلاً وأخر الثانية، ولا أعرف أحدًا من الموظفين قد يعفيني من الرسوم. ولما كان المكتب ضيقًا والوافدون عليه كثيرين انزويت بعيدًا أنظر دون أن أبصر ما يجري، شاردًا شرود مواطن يبحث عن وطنه، ويفكر في العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر. فجأة لاح رجل ببذلة سوداء ونظارتين سوداوين، قفز الموظف من خلف مكتبه مادًا يديه نحو الأمام، تلقف الأوراق في السماء، لم يحفل بأي كان ولا لأي شيء من حوله، في سرعة البرق، دون أن يقرأ وثيقة، ودون أن يقارن بينها، ودون أن يلصق "التنبر" صفَّ الأوراق جنبًا إلى جنب وبطريقة آلية أخذ يضرب عليها تباعًا: طك طك طك... جمع الأوراق، سحب ملفًا ورقيًا من الدرج، وضع بداخله الأوراق فسلمها للرجل "المكرفط" وهو يعتذر - في انحناء- عن التأخير. أراد أحد ممن أعياهم الانتظار أن يحتج فقاطعه آخر: "هو من أنزله خلف ذاك المكتب".

تمنيت لحظة لو كنت على معرفة بهذا الشخص، بدون شك كان قد أعفاني من هذا الوضع، واستسلمت للشرود: الكمال لله

والعصمة للأنبياء، والمعاملة التي حظي بها الرجل "المكرفط" قلَّ وندر أن يقوم به المسلم تجاه ربه، فهو يسمع النداء للصلاة وقد يقوم متثاقلاً أو لا يقوم أصلاً. وأنا لن أركع لغير الله، فالتقرب من أمثال هؤلاء يتطلب تنازلات على القيم والمبادئ، وهم وإن بدوا ظاهريًا من أنظف خلق الله، فلباسهم يخفي تحته من النتانة ما يبعث على القيء، ولعل أمثالي وإن بدوا في الظاهر متسخين فسرائرهم لا تنطوي على الشر، وكأن الطبيعة وازنت بين الناس في خلقها لهم فأكرمت البعض بطيبوبة السريرة وأكرمت البعض الآخر بالمظهر البراق.

انتظرت حتى فرغ المكتب، واقتربت من أحد الموظفين وكنت قد لاحظت هدوءه، اقتربت منه قدر ما يمكن هامسًا أشكو ضيق حالي ونزارة ذات يدي، فما كان من الموظف إلا أن طلب مني استخلاص "شهادة احتياج" ولأجل ذلك علي أن أتوجه إلى مقر المقاطعة التي تهتم بشؤون الحي الذي أقطنه... " يا رب ماذا تكلفه "طكطكات" كالتي استفاد منها ملف الرجل المهندم. حاولت معه للمرة الثانية والثالثة دون جدوى "القانون هو القانون" !!! وما كان لي إلا أن أقصد بناية المقاطعة.

بدأت جولة أخرى من النفقات المجانية وأغلاها، عفوًا أرخصها هو الوقت الذي تفنننا في قطعه بآلات التسويف والتأجيل والإرجاء والتماطل خشية أن يقطعنا بسيفه دون أن ننتبه أنا

وجهنا له الضربة القاضية منذ عهد بعيد. قضيت من هذا الوقت زمنًا أنتظر تشريف "شيخ الحومة" يسلمني تقريرا يشهد فيه أنني أنا ولست شخصًا آخر غيري يستنطقني: ما اسم أبيك؟ ما اسم والدتك؟ أعد.. من؟ عمله؟ كيف يُحسب أجره؟ هل عن كل يوم عمل أم عن كل كيس؟ لابد أنه يتقاضى أجرًا محترمًا ما دام يزاول هذا العمل الشاق، أليس كذلك؟ لمَ لمْ تجبني بسرعة؟ أرأيت أني على حق؟.

وبعد هذا اخذ يتفحصني، يطيل النظر إلى حذائي وبرأسه ألف خبث ثم إلى سروالي وذقنه في راحة يده اليمنى ورأسه تتحرك من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى ثم كذلك فعل وهو يجردني من قميصي بيد عينيه ليلبسه أو يلبسه أحد أبنائه.

بعد هذا الكشف بأشعة العين، أخرجني من تلك العلبة التي تشبه إلى حد بعيد مكتبًا ليتداول الأمر مع نفسه في هدوء تام ودون إزعاج، يسلم التقرير إلى أحدهم في المكتب المختص وبنا ء على هذا التقرير يُوافق على الطلب أو يرفض. وعلي أن أنتظر حلول الساعة الثانية زوالاً موعد تسليم هذه الشواهد.

وقفت متكئًا بيدي على ركبتي وبعجيزتي على حائط، وانتبهت لجلسة أحدهم يبدو وكأنه لا يقوى على الجلوس وما كره لو استطاع أن يتمدد، سألته وأنا أحاول أن أخرج عن صمتي وهو كمن لا يحس بما حوله شأن من طوحت الخمر بلبه وعاد لا يكلم

إلا نفسه، والحسرة تملأ قلبه وتخنق صوتًا يكاد لا يسمع، رفع بصره إلى أعلى ليراني، فاغرورقت عيناه بالدموع "الحمد لله رأيت أحدهم يكلمني وبلطف، وبدون تكشير وبالمجان. ولكن ما يحز بقلبي هو كلما أردت أن أكلم أحدهم وجدتني مضطرًا أن أنظر إليه من أسفل إلى أعلى، لم أصادف يومًا من نظر إلي نظرة أفقية، وها أنت ترى رغم أننا مجموعان في نفس المقاطعة وربما نتشارك في المعاناة فأنا شبه ممدد، أنت شبه واقف ترسل خطابك من أعلى وأنا أبعثه من أسفل، وأضاف "دع ذاك الجمل جاثمًا"... ولكي أستفزه سألت وأنا أتصنع السذاجة: "عن أي جمل تتحدث؟ جملي أنا، حظي أنا الذي اغتال سعدي وزرع النحوس في حياتي، حتى غدت حبلى بالأسقام، ورحت أطلب لها شفاء حتى نفذ كل ما حواه جيبي من دريهمات فأصبحت معدمًا دون أن يعرف الشفاء إلى جسمي ونفسي طريقًا - ويبدو أنه طريق وعر لا يُسلك - وها أنا أمامك شهادة فقر واحتياج وفاقه ومع ذلك يطلب مني طبيبي إحضار هذه الشهادة".

كان هو أيضًا ينتظر وصول الساعة المرتقبة، كان هو نفسه عبارة عن شهادة ضعف يستطيع قراءتها كل من ينظر إليه مريضًا أنهكه السقم، يرتدي أسمالاً ما جانب صوابًا من يقول فيها: "لم يعد الدهر يرضى لنفسه أن يأكل عليها أو يشرب".

ونحن ننتظر، أسمعني نحيبه، أطلعني على قصة حياته المرتبطة بمرضه والمصاريف الباهظة التي استنفذت كل ممتلكات العائلة المتواضعة، ليبدأ جولة جديدة مع المستشفيات العمومية.

قد ترى النجوم في وضح النهار ولا تتملى بطلعة الطبيب في مكتبه لا في غرفة فحص. والمريض دون ذلك يدفع لهذا ويراضي ذاك فما أن يقف المريض بالباب حتى يلاحظ أنه يدخل مِؤسسة مخزنية لا مؤسسة استشفائية، قلَّ وندر أن تدخلها شمس أو طبيب، يتعامل المرضى مع السماسرة من البوابين والمشرفين على الأمن والممرضين يتقاذفونه وهو في ذهابه وإيابه لا يعرف لنفسه أين سيقع أو أين سيستقر به الحال، حال كرة "ريكبي" تعاورها ركل وضرب وقذف لا يؤبه لها، يؤدي الثمن من وقته، من ماله رغم أن لا مال له، من أعصابه، من كرامته، أبهظ ثمن يُؤدى مقابل ورقة عليها خُربشت بعض الحروف، لا يفك طلسمها إلا أولي مختبرات التحليلات الطبية. والألم يستحثه على الإسراع، بعد أن يكون قد استعلم عن التكلفة النقدية، مده بيد العون بعض من توسم فيهم خيرا... عاد فرحًا يحمل مظروفًا مغلقًا وهو يجهل مطلقا محتواه، اليوم سيتملى بطلعة الطبيب دون أن يوقفه أحد أو حتى يسأله، لم لا والظرف بين يديه بمثابة تأشيرة. كالعادة بدأ يدفع الثمن وقتًا، طال انتظار وصول الطبيب، هو الوحيد القادر على فك رموز

محتوى الظرف، لم يفد الوقت ثمنًا وحان دور عملة الأعصاب، يقوم ثم يعود للجلوس، لا يقوى على البقاء واقفًا للحظات، يخف إلى أحدهم يسأله ثم يعود إلى مكانه وكأن مصيره مشدود إلى هذا المكان، وبعد انتظار تنتهي فترة الدوام وهو لا يصدق أن الأبواب أصبحت تغلق الواحدة تلو الأخرى ولن تكتب له زيارة الطبيب. يعود على أعقابه وصدره يضيق عن سقم ضاعفته الحسرة، كالعادة حظي بخفي حنين، عاد في اليوم الموالي، هكذا أصبح كل صباح يأخذ طريقه إلى المستشفى والطبيب لم يحضر قد يكون هو الآخر مريضًا. لم ييأس المريض، وفي أحد الأيام بينما كان على الكرسي الذي كاد أن يصبح ملكًا له بحق الأقدمية ناداه الممرض، وأدخله ليرى الطبيب منهمكًا في مكالمة... من حين لآخر يلتفت نحوه ينظر شزرًا، ألقى بالجهاز على طاولة المكتب... سلمه المريض المظروف، فتحه ألقى عليه نظرة وأعاد الورقة إلى الظرف ورمى به إليه وهو يقول هذه التحاليل.. لم تعد صالحة لقد، طالها التقادم. ببساطة شديدة تناول قلمًا وورقًا خط عليه خطوطًا تكاد لا تختلف عن الأولى ومده به دون أن ينبس ببنت شفة. والمريض ينظر دون أن يفهم شيئًا وينتظر أن يقول له الطبيب "لقد شفيت". تقدم نحوه الممرض وأومأ له بالالتحاق به. نهض متثاقلاً وكأنه لم يقتنع بما يحدث معه، أخرجه من المكتب وقد قرأ نظرة المريض وما بها من تساؤلات وقال:

"عليك أن تدحرج الصخرة من جديد لأن التحاليل السابقة قد طالها التقادم".

مريض هذه حاله لا يطلب غير فرصة استشفاء، اليوم حُنين أيضًا بخل عليه بالخفين، ما دام لن يكون في إمكانه أن ينتعلهما...

قضى العمر في سعي دؤوب ليحظى بفرصة استشفاء باتت حلم حياته وها هو لحد اللحظة لم يطلها رغم الثمن الذي دفعه.

obeikandl.com

(١١)

- أراكم كلكم تعودون بخفي حنين فالمريض يعود بهما من المشفى، والطالب يلبسهما، والعامل يعود وهو ينتعلهما، ولا أستبعد أنك أنت أيضًا لن تعود إلا بفرد واحد منهما من مغامرتك هذه... لم لا تحاولون العثور على حنين قد يحل المشاكل على جميع المستويات ؟ ويبدو أن حنينًا انتشرت مؤسساته الصناعية (صناعة الخف) والتجارية في كل البلاد، يبدو أن له نفوذه الكامل في جميع المؤسسات والإدارات، الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية وحتى الدينية، ألا يكون حنين الذي لا يُعثر إلا على خفيه، هو سبب المعاناة ؟ وإلا كيف يمكن تفسير اختفائه المتواصل، ولا يعثر له إلا على الأثر متمثلاً في الخفين. ألا يمكن ملاحقته عن طريق تتبع أثره ؟ لابد أن يقع يومًا إن نظمت حملة بحث تعتمد انتهاج مسح كامل..

- طال الانتظار بعد الوقت المحدد دون أن يطل من خلف الشباك.

- من ؟ حنين ؟

- ماذا حدث ؟ لقد انتهينا من حنين وعدنا لمواصلة الحديث عن "شهادة الاحتياج"

- المنادي بأسماء أصحاب الشواهد.

وفي اليوم الموالي، في الوقت المحدد، أطلَّ نفس الوجه، نادى أسماءً كثيرة وختم بقوله: "هؤلاء المنادى عليهم مطالبون بإحضار "تنبر" من فئة عشرين درهم". ثم اختفى خلف الشباك.

يا للعجب ألهث منذ يومين كاملين كي أحظى بإعفاء، وها هي "الفيلة تُلحق بالفيل"، يا إلهي كيف لمن يراد منه إثبات حاجته كي يُعفى من رسوم المصادقة على الوثائق أن يطالب بأداء رسم على شهادة الحاجة؟!

اقتحمتُ المكتب بطريقة لبقة، لم ترض الموظف، حاولت إفهامه ظروفي المادية، وأطلعه على الخطوات التي قطعتها لحد الآن. كان رفضه قاطعًا بدعوى أن القانون يُطبَق على الكل؛ أغنياءً وفقراء، ومن هنا استنتجت أن الأغنياء أيضًا تسلم لهم شواهد احتياج ولولا التساوي في هذا الحق لما كان هذا التساوي في هذا الواجب ولحصلت على شهادتي دون صعوبة.

سألت عن رئيس القسم في هذه الإدارة، كان قد غادر، وكان علي العودة في صبيحة الغد...

مجبرٌ على الانتظار والمنتظر لم يشرف بعد، علمت من خلال حديث بعضهم أنه لا يزال يغط وأنه من المألوف ألا يصل إلا بعد الظهر، وهكذا وطنت نفسي على دفع الثمن وقتًا لا أعصابًا مادام الوقت وفير يقتل في كل مكان، فقتله في حضن إدارة عمومية في انتظار أن يهل بدر الزوال، أفضل بكثير من قتله في مقهى أو على كرسي في ما يشبه الحديقة، أو حديقة إسمنتية.

لا أحد من المواطنين يرفع صوته بالحق وكأنهم لا يزالون في عصر الرصاص مؤمنين بقول من قال: "لمن تتوجه بالشكوى إذا ضربك القائد؟" يعتقدون أن لا سلطة فوق سلطة القائد. وهذا طبيعي بالنسبة لنا نحن الذين لا تستطيع آفاقنا أن تمتد أبعد من ظلنا، وهم يعلمون ذلك ويعاملوننا على هذا الأساس.

والوقت يتقدم وطابور المنتظرين يكبر... فتح أحدهم الباب من الداخل، رأى طابورًا عريضًا من الناس، ألقى بصره يمينًا وشمالاً في الممر ثم عاد كيربوع إلى الجحر.. ترى ماذا يحدث ؟ بدون شك الشخص المنتظر من قبل هذه الجماهير في الطريق ويريد أن يستعلم ما الذي ينتظره حتى يهيئ خطة للتخلص من هؤلاء "سقط المتاع" الذين لا هم لهم سوى التشويش على راحة أسيادهم. مرَّ وقت طويل وصاحبنا لم يصل بعد.. لعله توقف بإحدى المقاهي حتى يتناول فطوره، ويدخن سيجارة ليستعيد حيويته، وقد أرهقها طول السهر ليلة اليوم. كادت فترة الدوام أن تنتهي والطلعة المنتظرة لم تهل بعد... والممر يعج بالمواطنين واقفين جالسين، ممددين، لا بأس أن يتخطاهم المارون أو حتى يتعثروا فيهم فمنظرهم يدل على أنهم لم يخلقوا إلا لذلك (على حد تعليق أحد الموظفين المصاب بـ...). فتح الباب من جديد وأطل نفس الوجه، وقلت في سري: " يا رب ماذا يحمل لنا من أخبار، لابد إرجاءً أو تسويفا !". لما كنت في صدارة الطابور أشار إليَّ بالدخول، ففعلت دون انتظار رغم أني

لم أر أحدًا يدخل المكتب وأنا أسعى لمقابلة المسئول، ترى ما الأمر... قاعة طويلة عريضة، طاولة مكتب لها بريق ولمعان، خلفها يجلس رجل يشد النظر، لون شعره فضي، يرتدي بذلة سوداء ورابطة عنق سوداء وليس له نظارات سوداء، يبدو أنه شخص لا يخفي شخصه ينظر مباشرة إلى المواطن، ولا يتظاهر بالانشغال بأوراق ملف، أو بالرد على مكالمة وهو يدرك أنها تافهة لا علاقة لها بالعمل ولا بمصالح المواطن لا من بعيد ولا من قريب. بلباقة تزينها ابتسامة سألني... أنصت إلي باهتمام، طلب مني تسليمه الملف، ونادى مساعده، أمره أن يأخذ الملف ويعود به جاهزًا وبسرعة، وما زاد على أن طلب مني انتظار عودة مساعده خارج المكتب، شكرته وخرجت. قلَّ وندر أن تحظى بهذا النوع من المعاملة، إلا أن الشك يبقى قائمًا؛ أهي معاملة "سطاندار" أم أن لكل مقام معاملة. خرجت والسؤال يلازمني ويحيرني: "من أين دخل المسؤول مكتبه؟"

(١٢)

- يبدو مما سمعت منك أن الإدارات العمومية ليست عمومية، بمعنى في خدمة عموم المواطنين، ما دام كل موظف يتصرف داخل مكتبه بالشكل الذي يحلو له، الأجدر أن تكون إدارات خاصة، يتصرف المسؤول حسب مقتضيات قوانين المؤسسات الخاصة، لا كما تقتضي مصالح الوطن ولا القوانين المعمول بها، كل ما تقول تحكمه غرابة، الفقراء لا يستطيعون أن يدفعوا رسومًا، ولإثبات عجزهم هذا يطالبون بإحضار وثيقة إدارية موقعة من طرف المسئول الإداري عن الجهة التي تقطنون بها، وهذه الوثيقة هي الأخرى تستدعي أداء رسم. ما أفهمه هو أن هذه الوثيقة اسمها يتعارض مع الواقع، فما داموا يؤدون عليها رسمًا لغرض قد تكون تكاليفه أقل من رسمها، فهم مع كامل احترامي يدلون بشهادة تثبت عدم حاجتهم وهم لا يشعرون. هم في حاجة إلى من يُشعرهم...

التفت إلي يومئ بمواصلة الحكاية، وهو يتنهد، وكأن لهيبًا يصاعد من أعماقه:

- درستُ لسنوات... نلت الإجازة ووالدي تضعف قواه سنة بعد سنة والأفواه تكثر من حوله، وسؤاله يجتر: "ألم يحن الوقت

بعد ليوظفوك؟"... إجازتي بدون امتياز... ما عرفت يومًا ماذا تجيز، كل ما عرفته هو أنها لم تجز لي عملاً ولن تجيزه لأني ما دمت لم أقبل في هذه السنة، ففي السنة الموالية سيطالها التقادم ولن تجيز سوى الوقوف أمام أبواب المؤسسات والاعتصام خلال أسابيع وشهور، والسلطات ترخي الزمام منتظرة أن يشاهد العالم روح الديمقراطية السائدة في هذا البلد الأمين، وما أن ينشغل الإعلام بأمر قد يستأثر بالاهتمام حتى تتسلل من الظلام عصا القمع وسيف الاضطهاد. ليداعبا الأجساد التي طالما غازلها الجوع، فلم تعد تقوى على الوقوف.

- ما دام هذا النوع من الشواهد لا ينفع في شيء فلم لا يعزف الطلبة على هذه الشعب أصلاً؟ وأكثر من هذا تهدر أموال طائلة تصرف على هذه الكليات، تنفق على تجهيزاتها، وأجور أطرها المختلفة وتصرف منحًا لطلبتها توفر لهم المبيت والطعام بأجر زهيد يضاهي زهد المنحة.. وسنويًا تخرج أفواجًا ينضمون لطوابير البطالة، أليسوا واعين بما ينتظرهم من مصير؟

- لعبة التمويه ولأبناء أمي/وطني شواهد عليا في مختلف علوم التمويه إلى جانب خبرة واسعة علمتهم حتمية كسر البيض لتهيئ العجة... أعتقد أن الطلبة لم يألوا جهدًا، فما مرت سنة جامعية دون احتجاجات ومظاهرات واضطرابات، إلى درجة أن من يقوم بعملية حسابية بسيطة، يدرك أن أيام الدراسة لا تتعدى

الشهرين على أكبر تقدير. بل ذهبوا إلى مقاطعة الامتحانات، لكن لا حياة لمن تنادي... ألم أخبرك أن من يخططون ويدرسون ويشرعون ويسنون القوانين وينفذون ويصادقون ويصوتون هم من رأيتهم ينعمون بأسباب الحياة وهم من يتاجرون بالذمم والقيم والأخلاق، هم من تزدحم بهم الشاشة الرسمية، والصفحات الأولى لكل الجرائد الوطنية هم من تحتضنهم. وهم من يطأون رقاب الناس، هم السحرة الذين، بفضل ما أوتوا من عبقرية في عالم الإجرام سنوا القوانين وتعمدوا التثغير، وشرعوا يصنعون عرق جبين المغلوبين، فيحولونه، ينتجون لهم منه لا لغيرهم ما يخطر لك على البال، وما علمت، وما شهدت. أحالوا هذا العرق بساتين تمتد نحو الأفق، وحدائق غناء تسر الناظرين، أشجارها وارفة الظلال، دانية الثمار. حولوه عمارات، تخترق ذراها السحاب، ولا زالوا ينفذون إلى السماء في سباق محموم. هم أصحاب حصة الأسد في رأساميل كبريات البنوك العالمية... صنعوا لأنفسهم جاه الأباطرة وسلطان السحرة، بمقدورهم أن يُضحكوا الدنيا، لمن شاؤوا أن يرفعوه إلى العلا. وبمقدورهم أن ينسفوها من تحت أقدام من أدرجوا اسمه في لائحتهم السوداء... أه.. كدت أنسى، أيها الحوت/الوطن، أرى، إذا كان ذاك فعلا حضنك تأوي أولئك، أقصد من أسميتهم"إخوة العفيف"ومن جهة ثانية، توفر لهم ما يحتاجونه من ضحايا - سامحني رجاء إذا وجدت سؤالي وقحًا -

ألا توافقني أن الأمر كله محاط بنوع... من... الش... ك، لا، لا، لا، فمهما كان الأمر أنا مدين لك... لا، لا، لست مدينًا لأحد (قلت هذا في نفسي).

- واصل، إني في انتظار سؤالك.

- لماذا استثنيتني من المصير الذي فرضته على من كانوا رفاقي في الرحلة؟

- لا تموه! ليس ذا السؤال الذي كنت تنوي أن تطرحه! ليس هذا ما تشير إليه ديباجة السؤال، هيا لقد حانت ساعة الجد!

- في واقع الأمر أحاول أن أضع إصبعي على العلاقة بين تواجد كل من "إخوة العفيف"وضحايا العاصفة، ومن افتعل العاصفة. ألم تقل أنك الوطن؟

- بلى، وبعد، اتمم، هات سؤالك!

- ما نسبة تواطئك مع" إخوة العفيف"؟ وما مدى مساهماتك في إحداث العواصف والزوابع، والاستفادة من آلام ضحاياها؟

- تعجبني جرأتك، وطريقة نظرتك للحياة... لا أدري لحد الآن لم جنبتك مصير الآخرين؟ إلا أن هناك أمرًا شدَّ انتباهي إليك دون أن أستطيع تحديد ما هو، لقد رأيت عينيك تشع عزمًا، تنم عن شخصية تجيد المواجهة، تعبر عن رأيها بلا لف ولا دوران، فارتحت إليك، ولذا حاولت من خلال هذه التجربة القصيرة أن أتعرف عليك عن قرب، قد اتخذ منك عضدًا يشد أزري.

- لحظة من فضلك! لن أسمح لأي كان أن يساومني على توجهاتي مهما كان، إذا كنت من خلال تعاملك هذا تسعى إلى ضمي لأذيال إخوة العفيف، فاعلم أني أفضل أن يكون مصيري مصير أهل الحظيرة.

- معذرة "يا بني"، فأنت أعزب لا أبناء لك، لا يمكنك أن تحس بعاطفة الأبوة أو الأمومة إلا في شقها النفعي... ولكن مع ذلك يمكنني أن أضعك في الصورة

- كيف ذلك؟ لم أفهم شيئًا.

- ألديك إخوة وأخوات؟

- أجل.

- أيرضى والدك ووالدتك عن سلوكهم؟ بل هل كلهم صالحون؟ أليس من بينهم من يتصرف على عكس ما يفرضه نظام البيت ونظام المجتمع من حوله؟ قد يتبادر إلى ذهنك كل ما يمكن أن يتبادر، لكن الحقيقة أني في وضع لا أحسد عليه، فما رأيت، وما لم تر، وما لن تر، مما وجدتني غارقًا فيه، هو مستنقع، تأسنُه من نسيج عناكب إخوتك، أحظى منهم بالمجاملات، بالمحاباة، وحركاتي تحت مجاهرهم. فأنا منهمك في مخلفات رواسب الماضي، زراعة من فساد الحياة في مختلف مجالاتها امتدت جذورها في أعماقي على مدى عقود من الزمن خلت. وكل ما أستطيع القيام به في الحاضر هو الحرص على أن يكون

obeikandl.com

الضرر أخف ما يمكن، ولذا وكما ترى أحمل الجميع في أحشائي، الرفيع والوضيع، الصالح والطالح من أبنائي، وهذا ما يمكنني فعله حتى أتمكن من الإحاطة بما يجري من حولي، وهذا ليس رغبتي ولا هدفي ولا ما أسعى لتحقيقه. وأملي أن أتوصل في بادئ الأمر إلى العثور على فرسان مغاوير -ولقد توسمت فيك خيرًا- يحيكون لواء أرض من أمن وأمان، سماؤها حرية واطمئنان، وبحرها عدل وميزان؛ يجمعون، ريشة ريشة، أجنحة نتفت منذ زمان، يلتقطونها من الهنات والمثالب والأنقاض ليرفرف عاليًا معلنا ميلاد "مهيار"أباركه وأزكي خطاه. فما أثار لحد الآن انتباهي من يحرك ساكنًا، ويمكن الاعتماد عليه من الشباب.

- أمعاناتك بهذا الحجم؟! وأنا من اعتقد دومًا أن لك من القوة ما لا يضاهى ولك من الغنى ما لا يفنى... أتريد أن تحملني المسؤولية، وأضطلع بمهام خدمة للوطن وأنا ما استطعت تغيير حياتي. حتى أضحيت عبئًا على نفسي وعالة على غيري. من أين لأمثالي بهذه الروح، وأنا في منتصف العقد الثالث لا زلت عالة على والدي أقتات من عرق جبينه وأعيش على شقاء يومه وآلام ليله، لمَّا أوجه اللقمة إلى فمي تنحرف عنه معلنة حرانها بل تعمل على أداء المهمة الموكولة إليها على أحسن وجه، تأبى الانقياد، كلما وجهتها نحو فمي، انتصبت صورة رجل ضعيف البنية يحمل على ظهره بيدرًا من القمح، وهو

يرزح تحت نير هذا الثقل يسمع من الكلام الجارح ما ينبو عنه السمع العفيف، لأجدني قد أعرضت عنها فيتلقفها أحد أفراد سرب إخواني قبل أن تستوي على الطاولة... وكأني أسمعها تقول: " هذا ليس من حقك، أنت تتطاول على حقوق غيرك، انهض، لا تتغابى، تحل ولو بقليل من المروءة، أترضى لنفسك أن تزاحم إخوتك القاصرين الذين من بينهم من يساهم بعرق جبينه أو بخفة يده... في اقتصاد البيت ؟ اسأل شبابك قوت يومك عوض أن تبقى عالة على من هم أضعف منك، ألست أقواهم بنية، وأصلبهم عودًا، وأكثرهم علمًا، أم أنك في تعلمك أدخلت في قالب بقيت داخله طيلة حياتك التعليمية لتخرج منه في أخر المطاف بكل هذا الخنوع، ليس من الشباب شباب لا يقوى على كسب قوته، لا يقوى على رفع صوته، ولا حمل قلمه سيفًا في وجه الظلام الدامس الذي يكتنفه، ولا كانت لديه الشجاعة على ركوب الخطر، وإضرام النار في الجليد الذي كبل حركاته".

طرقتُ أبوابًا وأبوابًا أحمل ملفي رغم أني ملف مكشوف الأوراق: سيرتي الكاملة على وجهي وعلى هندامي وعلى مظهري، في منظري بل في جنسي. كل الأبواب موصدة... عزمتُ على البكاء، وطنتُ نفسي على الصراخ، لكن سرعان ما اغتيلت دموعي؛ كل دموعي؛ فلم يعد لي أي أمل في البكاء كل ما يسمح لي به تصريف الدمعات إلى أنات شريطة عدم الجهر حتى لا تصير آهات، هكذا تم حرماني من البكاء لأن الدمع رغم

كونه سلاحًا ضعيفًا، يفضح الواقع المتعفن، فهو تعبير بليغ عن المعاناة من الألم الناتج عن الظلم في شتى مظاهره، وإذا انكشف الأمر وعرف مالكو الرق بالدموع كان الحرمان من المساعدات والإعانات والصلات التي تنثال من فجاج كثيرة لتُشق لها قنوات تجمعها بخيرات البلاد لتساق كلها إلى حيث تجمع وتكنز... وأمام هذا الوضع لا أرى غير مراكب تغري بالعبور من الجنوب نحو الشمال. فابن عمي ميمون لم يضيع وقته في طلب شواهد الفقر والضعف والحاجة ولا في طلب شواهد "التمستر" أو "التدكتر" وها هو يعيش على أحسن حال وما كلفه ذلك غير ركبة بحر، رغم ما يعيش عليه من هضم لحقوقه وما يعانيه من جراء التمييز، راض تمام الرضا على نفسه وعلى حياته. ورغم الرضوخ، ورغم المهانة حقق الكثير من طموحاته المادية ما كان ليحلم بكسر ضعيف منها لو لم يغامر في البحر. عاد من سابع المستحيلات التفكير في حياة كريمة داخل الوطن وبين أحضانه الشائكة، لم يعد يفصلني وقت على أن أصبح محرومًا من الأوكسجين، وعلي وأنا مجبر على التنفس لأضمن بقائي في الحياة/المعاناة أن أقتني أنبوب أوكسجين أحمله، أشحنه كلما نفذ محتواه. ولشحنه لا بد من أثمان، فقبل النقد يدفع الثمن وقتًا، ثم أعصابًا، وإذا تعذر تعددت سبل الدفع، فيقتص من الكرامة ومن العرض ما دام الأمر يتعلق مباشرة بالحياة/المعاناة أو الموت/الاستراحة...

(١٣)

- ما يُفهم من خلال حديثك عن الشواهد أن الإشكال الأساس قائم بين "المواطن" و"المؤسسات"، في كل خطوة تخطونها تحتاجون إلى شهادة ورقية يمكن ابتياعها من أي محل سواء أكان تجاريًا أو تعليميًا أو استشفائيًا أو... يعني كل شيء يسير على عكس المقولة: الرجل المناسب في المكان المناسب، وكلهم مرتزقة. والدليل هو ما قلته عن شباب لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ويحتل منصب مسير كبير في مؤسسة وطنية حيوية، في الوقت الذي يقضي غيره ممن حازوا شواهد علمية أعلى حياتهم يتدحرجون بين درجات السلالم قد تنكسر دون أن يبلغوا مثل هذا المبلغ (خطأ النسب).

على الشباب أن يعي أولاً ما يحيط به من ظروف؛ خاصة وعامة؛ محلية وإقليمية وعالمية، على ضوئها يرسم معالم طريقه، يضع خطط عمله، على مختلف الآماد في جميع المجالات، مراعيًا الحاجيات، والأسبقيات والأولويات المرتبطة بجميع شرائح المجتمع. لا يعلو عربي على بربري، ولا شريف نسب على غيره، ولا رفيع على وضيع. حتى يذوب صقيع اللوبيات وتضيع مصالحها في ضياء العدالة والديمقراطية وجدية الإصلاح الهادف للمصلحة العامة.

كما يعني أيضًا أن الشباب في حقيقة الأمر في حاجة إلى فهم ذاته واستيعاب الحكمة من تواجده فوق أرض وطنه، في حاجة إلى دروس في المواطنة إلى دروس عملية في المواطنة، ترتبط ارتباطًا عمليًا بحقوقهم وواجباتهم، وبغير هذا سيظلون فقراء ما افتقروا لهذه الروح، وهي روح لا تنمو في أرض قاحلة يسقيها القمع عبر سواقي الأنانية وحب الذات، يسمدها رشاش الظلم والاستبداد، ويتعهدها شبح الإرهاب، يحيط بأركانها الأربعة. بل تغرس في نفوس طاهرة، لا تسقى فسائلها بالأناشيد الحماسية الصباحية في المدارس، والطفل قد قطع مسافة طويلة مشيًا ليصل مجهدًا ليقف في استقامة الجندي يردد كلمات العزة والكرامة والحرية والرجل حافية والمعدة فارغة. الوطنية أن يوصل طفل اليوم ورجل الغد إلى المدرسة معززًا مكرمًا شبعان كاسي. هذه الروح ليست شعارات جوفاء تردد، ولا تنمو روح المواطنة بأداء الضريبة وحدها وفي المستشفيات العمومية تعترض الميكروبات في حجم السلحفاة سبيل المرضى. ولن تنمو أبدًا في ظل الحرمان من أسباب الحياة الكريمة. وفي أبواب الإدارات العمومية تقف العصي. وبالداخل تنتهك حرمات الوطن والمواطنين وشرفه وشرفهم.

إن الحياة كما صورتها على البر/الوطن في الضفة الجنوبية قاتمة تمامًا، ليس بها ظل لشُع باهت، كلها أشواك، أينما

وضعت القدم يصيبك وخز، لا وجود على الأرض لورد أو عشب أو خضرة، أراها قاحلة والسماء دائمة الزرقة، لا يعكر صفوها مزنة أو غيمة أو ديمة، لا مجال لنور الشمس فيها، بل لا شمس تجوبها من الشرق نحو الغرب - وهل للشرق شمس حتى تنطلق نحو الغرب؟- ليل متواصل. أراك تلقي باللوم على الغير تستذنبه، وتحمله المسؤوليات، دون أن أجد في حديثك ما يشير أو يلمح أو يعرض أو حتى يلوح إلى وجود تصرف حضاري أتاه الشباب في إطار جماعي منظم يعبر من خلاله على استيائكم من قتامة الأوضاع المزرية ورغبتكم في التغيير والمشاركة في الحياة. ترددون "الذئاب تصيب الشاة القاصية" وما فهمتم يومًا أبعادها وأنكم الشاة القاصية عينها. فبتصرفك الأحادي والمنفرد ما يجعل منك شاة قاصية. لم تتعلموا الدرس من "حكاية الشيخ وأبنائه وانكسار العود إذا كان وحيدًا واستعصاؤه على الكسر لما يكون ضمن حزمة". تفتقرون للروح الجمعية، تطغى الأنانية وتسود الأحادية. لو كنت تتمتع بهذه الروح للاحظت أننا معشر الحوت/البلدان نقطع المسافات الطوال أسرابًا رغم ما لكل واحد منا من سلطان ومن جبروت وإمكانيات و... ، أنظر من حولك! سنة الحياة لم تعقلوها، كل الكائنات تتحرك داخل إطار جماعي حتى أشرس الحيوانات، حتى أقواها لا تحقق ذاتها إلا من خلال الجماعة وبذلك تكون قادرة على ضمان حياتها وحفظ جنسها من الانقراض. وأنتم مع

قوة ضعفكم، تريدون تحقيق ذاتكم فرادى، ربما مرجع ذلك إلى عدم قدرتكم على فهم ذاتكم، تنافقونها تغالطون من حولكم، وهو أعلم بكم من أنفسكم، تخافون مواجهة أنفسكم بحقيقتكم، تفرون وتولون من الحقيقة الأدبار، وهذا ما يدفعكم للهروب إلى غير وطنكم الذي هو في حاجة ماسة إليكم. لكن على خلاف ما أنتم عليه، فهو يريدكم أن تدافعوا عنه، أن تحموه من الشرور المحدقة به والتي تنخر جسمه وأن تدافعوا عن حقكم في وطنكم وعن حق وطنكم فيكم، فالحقوق لا تضيع طالما وراءها طالب، فهروبكم جريمة في حقكم وفي حق وطنكم ودليل على جبنكم وعجزكم، فأنتم كمن يرغب في أكل عجة لكن يعز عليه كسر البيض. اكسروا البيض حتى تتأتى لكم العجة! فما دمتم ترهبون كسر البيض لن تحققوا إلا الخيبة.

وبعد، هل اهتممتم بتصفح تاريخ هذه البلدان التي تغريكم؟ أو على الأقل هل كلفتم أنفسكم السؤال: كيف استطاعت الجهات التي تغري بالهجرة أن تكون الفردوس الذي تحلمون ببلوغه؟ لا بد أن ما حققته لم يكن ثمرة للأحلام والتمني ولا للتقاعس والاتكال ولا للهروب من المواجهة. ألم تقطع مراحل وأشواطًا، وأدت الثمن غاليًا: نفسًا ونفيسًا، تطهرت ربوعها بزكي دم مناضليها وشهدائها، قبل أن تحقق ما ترونها عليه أنتم من عز ورخاء. وهل سألتم أنفسكم هل تأتى لهم هذا الرخاء بالهجرة؟

ألم يرعكم ما قدمته هذه الشعوب من تضحيات جسام حتى أرست قواعد ثابتة تضمن لها عيشًا كريمًا؟ وهل تظن أن تلك الأوطان التي بنت أمجادها بدماء أبنائها حققت ما حققته بفرار رجالها فرار الأرانب كما تفرون أنتم فرار الجبناء؟ وحتى مع افتراض وصولكم هل تعتقد أن هذه الشعوب ستستقبلك استقبال الكرماء؟ ألم ترفض منحك رخصة تسمح أن تطأ أرضها؟ كيف ترضى لنفسك أن تقتحم عليها أنت - من تنظر إليك كما تنظر لحيوان متوحش- ديارها وببساطة تزاحمها في قطف ثمار شجرة غرسها سابقوهم وهم الآن يتعهدونها ليسلموها للاحقيهم من أبنائهم؟ لم لا تتحمل هوان بلادك مؤقتًا وتشارك في الرفع من مستواها تدريجيًا، وتبذل الغالي والنفيس لتطهيرها من الأنجاس وتعقيمها ضد كل مرض أو عدوى مرتقبة؟

أنتم لا تفكرون إلا في استذناب الغير، فأنتم لمَّا تريدون التأخر عن موعد أو غيره تستذنبون الحافلة. فأنتم الذين تركبون البحر بما فيه من أهوال ومخاطر كالبيض العفن الذي لا يمكن أن يبعث من داخله فرخ لا يصلح حتى الاستهلاك الفوري ويرمى قشره. لكن إذا جبرتم كسركم هذا عن طريق استعادة الثقة في النفس والتصالح معها وبنا ء جسر من هذه الثقة بينكم وبين الوطن لابد تجدون سبيلاً يفضي إلى الحياة الكريمة تدريجيًا. وهذي يدي ممدودة.

- ما هذه المحاضرة أيها الحوت/الوطن ؟ - قد تكون أنقذتني من موت محقق وقدمت لي زعانف/يد المساعدة بعد أن كان لك تواطؤ مع إخوة العفيف في إحداث العاصفة التي أحبطت محاولة القارب، وزجت بالركاب في الحظيرة وقصرت علي معاملة حوتية/ إنسانية، فأنت حوت/إنسان - ما حاجتك بي ؟ ألا تنطوي معاملتك لي على دسيسة أو أمر مريب في انتظاري.. ؟

- اسمع يا هذا، أشم في كلامك رائحة المراوغة، لا بل الخبث. أما فهمت القصد من مساعدتي لك ؟ أراك تتغابى، ألم أقل لك أني في الأصل حوت/وطن ؟ اسمع يا من تتظاهر بالفهم بل بالذكاء، لا زلت لحد الآن تأتي تصرفًا أخرق، لا تعمل عقلك، وليس لديك استعداد بعد للنظر إلى الأمور بعين الموضوعية والمنطق. افترضْ أن لك ضيعة ورثتها، بعد حرب ضروس خضتها استطعت أن تحيطها بسياج من العناية؛ بعد أن كانت أرضًا قاحلة، حفرت بأظافرك البئر، وغرست الأشجار وزرعت الخضار وأجريت الماء حولها حتى أينعت وأزهرت، ولما أثمرت أخذ اللصوص يقتحمون عليك روضك ينهبون خيراته أمام عينيك، ماذا كنت ستفعل ؟

- ماذا أفعل ؟ كان علي أولاً ولما كانت ضيعتي تزهر أن ألاحظ ما يحدق بي وبها من أخطار، وأقيم حراسة فعالة. وإذا اقتحم اللصوص المكان، أحاول بالاعتماد على الحراسة أن أتبين من

هم اللصوص، ومن أين جاؤوا، أمن الداخل أم من الخارج، وإذا كانوا من النوع الثاني حاربتهم بلا هوادة، بالطبع أخوض حربًا ضروسًا، أمتلك أرضي، أستعيدها، بأظافري أحفر آبارًا، أغرس غابات الأشجار ولما تونع وتزهر وتثمر أملأ زباني سمًّا أنفثه في وجه كل من سولت له نفسه أن يطأ أرضي بغير حق. أما إذا كانوا من النوع الأول، أحاول أن أدرس الظاهرة ومن كل جوانبها حتى أقف على الداء الحقيقي وأصف له الدواء الناجع حتى ولو وجدت نفسي مضطرًا لنتقاسم شظف العيش الذي يرسم بعرق الجبين...

أتراني أطلب أكثر من هذا ؟ أنا في حاجة إليك أكثر مما أنت في حاجة إلي أنت الشباب الذي أعول عليه ـ أنا الوطن ـ الشباب الذي أعقد عليه الآمال، الشباب الذي حلمت بتأهيله وتكوينه عبئًا نتيجة لكل ما سبق إن اطلعت عليه في تجربتك الأخيرة، فلا تعد منها بخفي حنين.

(١٤)

في هذا الخضم لفترة غير قصيرة ساد صمت كصمت أهل القبور، وملأ الفضاء سحاب أسود يتحرك بسرعة لم يُشاهد له مثيل، سرعان ما ثار البحر وأخذت الأمواج تعلو، وتعلو، وصوتها يرتفع ويرتفع، ولا زالت الأمواج تعلو والأصوات ترتفع والسماء تسود، أصوات عارمة تمزق طبلة الأذن. تذكرت ما قرأته وما سمعته وما أعرفه عن علامات الساعة، فوجدت أن بعضها غير حاضر ولا واقع في ما يدور حولي. حالة مخاض عسير، ترى هل يكون المولود في مستوى عسر المخاض ؟.

ظلَّ الحال على ما هو عليه حتى لم أعد اذكر اسمي ولا أعرف من أنا ولا أين أنا وأنا في كامل قواي العقلية. لم أعد أحرك أطرافي، لم أعد أرى شيئًا من حولي وأنا في كامل قواي العقلية. لا مطية لي، ولم أغرق وأنا في كامل قواي العقلية. لم أعد أسمع، لم أعد أرى، لم أعد أعد، وأنا أفقد قواي العقلية، أقول في نفسي:لا للاستسلام، لكن هيهات...

من خلف الأمواج العاتية يومض البرق حتى تكاد تعمى منه الأبصار، تليه قصفات رعد متتالية، تهتز لها أعطاف الدنيا وما تلبث شآبيب المطر تنهمر متواصلة تتراءى كلما ومض البرق وكأنها خيوط بل حبال وصال أرسلت من العلا تجمع الأرض

بالسماء، تصل الرحم وتنشر الخصب. في لحظة أحسست وكأني ولجت بوابة الزمان محاطًا بهالة من الضياء أرتدي درعًا متوهجًا، أتمنطق حزامًا من وهج يتدلى منه غمد سيف ناري، وبين ذراعي أحدث الأسلحة النارية، أجر خلفي ذخيرة لا تنفذ. وقفت في عرض البحر عملاقًا، إذا جدفت بيدي ثار البحر وعلا الموج واندفع نحو اليابسة حتى يرتطم على الصخر أو يتخطى حدود الشواطئ معلنًا عن قرب حدوث أمر عظيم. كلما زفرت اندفع اللظى نحو الأرض يحرق الأخضر واليابس، وإذا صحت خرَّ كل ذي نسمة إجلالاً، ولم تصلهم مني غير طلائعي.

التفتُ إلى الخلف لاح في الأفق البعيد ما يشبه الجبال تتحرك في اتجاه الجنوب، بآلاف المصابيح كأنها سماء في ليلة صافية الأديم. رأيتها تدنو وتقترب، وقفت منتصبًا استعدادًا لاستقبالها، إنها عمارات بحرية بعشرات الطوابق، تنبعث منها أصوات طغت على هول البحر، أصوات ترتفع كلما اقتربت، أصوات تردد نفس النغمة، نفس اللحن تعزفه الملائكة، وتتراقص على إيقاعه الحوريات، نفس النشيد، نشيد الحياة، بوارج ملأت البحر طولاً وعرضًا. وما زالت الأنغام ترتفع والأمواج تنخفض، وتقترب الأنغام وترحل الأمواج حتى بدت رغم عتوها أسيرة موسيقى البحر ذات الأنغام الساحرة. ومن حولي وأنا محمول على كف الماء بعرض مساحة الوطن، تتراقص الجماجم، تطفو

على السطح، وتتكاثر.. وتتكاثر وكأنها بعثت من قبور ثم لا تلبث أن تكسى شعرًا.

في خضم هذه الغرابة تلوح أذرع من العدم، وقد اندفعت من الماء نحو الفضاء لتستوي ملتصقة على يمين وشمال صدور انبعثت من لا مكان، فترى الأصابع تنمو وتنبت منه الأظافر صلبة، وترى السيقان في سباق محموم في اتجاه هذه المخلوقات، فتكتمل في لمح البصر خلقتها، وتستوي شبابًا. في نظام وفي انتظام يتلقف كل واحد أنثى وذكرًا سلاحه ويتزود بما يكفيه من ذخيرة. كل من كان في الحظيرة، كل من كان أشلاء عالقة بين الصخور، كل من كان يقبع في قعر البحر، كل من كان لقمة في جوف الحوت التحق بالجمع. أسطول العائدين عمارات عمارت من أعاليها حتى أسافلها تتدلى الرايات، وتتلى الآيات وتردد الشعارات. الكل يؤم الجنوب الكل يحج إلى الجنوب في موكب أسطوري لم يشهد له تاريخ البشرية مثيل.

على الشاطئ استقبال وخيول وطبول وتغاريد وزغاريد. غابت فيه كل الألوان والتلوين والتلون واختفت في ألوانها وقد حالت على بساط الوصال وبقدرة قادر كل ما كان من أسلحة نار عاد نور مؤهلات وإشراق كفاءات، أنجب أحدث التكنولوجيات، تضاهي أرقى مستويات التحديث في العالم والطريق مذلل في اتجاه بنا ء الحياة.

....

تمت

obeikandl.com

المؤلف في سطور

- عيسى أحمد حموتي أوري
- شاعر وقاص مغربي من مواليد مدينة وجدة، عام ١٩٥٥م
- حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الأول، وجدة – المغرب
- نشرت قصائده وأعماله القصصية في العديد من الصحف والمجلات.

- الإصدارات :

- تضاريس القلق : شعر .
مطبعة الجسور، وجدة – المغرب، ٢٠١٠م

- التحدي : مجموعة قصصية

- أوريات "أو مجنون بنت الريف" : شعر
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١١م

- أولاد القايد : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م

- الهجرة المعكوسة : رواية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م

- البريد الإلكتروني: aissa. hamouti@gmail. com

obeikandl.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- **إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.**
- **تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.**
- **الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.**
- **حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.**

obeikandi.com

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

obeikandl.com

obeikandl.com

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net